الفصل الثاني

أ ـ ثقافة المتنبي العربية الإسلامية.

ب ـ تنبؤ المتنبي.

جـ ـ القرامطة ـ هل كان المتنبي قرمطياً؟

د ـ اتصال المتنبي ببلاط سيف الدولة الحمداني.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

ثقافة المتنبي العربية الإسلامية

قبل أن أخوضَ في البحث في ثقافة المتنبي، أرىٰ مِن الواجب عليّ لأستكمل الموضوع، أنْ أتعرضَ إلىٰ نشأته العلمية، ثم إلىٰ البيئات التي عاش فيها، وما كان لها من تأثير عليه في ثقافته العربية الإسلامية.

نشأة المتنبي العلمية:

إنّ الحديثَ عَنْ ثقافةِ أيّ شاعر أو أديب يحمل الباحث علىٰ تتبع حياة من يدرسه في مختلف مراحلها لكَيْ يلمّ بكافة العوامل التي تضافرت لخلق هذه الثقافة.

لقد تلقّىٰ المتنبي تعليمه الأول بمسقط رأسه الكوفة، يقول البغدادي[1]: «اختلف المتنبي إلىٰ كتّاب فيه أشراف العلويين، فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً، لقد عرف تعليم الصبيان في الكتّاب منذ فترة مبكرة، وأنتشرت الكتاتيب من القرن الثاني الهجري في المدن والقرىٰ، حتىٰ أصبح لكل قرية كتّاب أَوْ أكثر، وكانت الكتاتيب ملحقةً بالمساجد أو مستقلة عنها، ويبدو مدىٰ هذا الازدهار واضحاً حين تعلم أنّ أحد الكتاتيب كان يضم ثلاثة آلاف تلميذ»[2].

يقول يوسف خليف[3]: «إن وجود هذه الكتاتيب يتفق إلىٰ حد كبير مع طبيعة الحياة الاجتماعية والمذهبية للكوفة، فقد ترك النظام القبلي الذي قامت علىٰ أساسه هذه المدينة آثاراً واضحةً في تخطيط المدينة وطبيعة الحياة فيها. إذْ كانت

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٢.

(٢) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ط٢ ص٥٢-٥٣.

(٣) يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة ص٣٢-٤٠.

للقبائل وبطونها أحياء خاصة ومساجد وشوارع وساحات عرفت بأسماء القبائل والبطون.

وكانت الكوفة مهداً للتشيع ومعْقلاً لشيعة علي وأولاده. «أما المادة العلمية التي يمكن أنْ يقدمها هذا الكتّاب بالإضافة إلىٰ تعليم القراءة والكتابة فهي النحو لِكي يحمي المتعلم من مزالق اللحن، والأخبار والأمثال والحساب وكتابة الإنشاء وقراءة كتب البلغاء»[1].

وقد قامت علىٰ هذه المدارس شخصيات أفاض التاريخ في الحديث عنها فمنهم علماء وبلغاء وفقهاء وخطّاطون وأدباء، وقد آحتلّ بعضهم مراكز رفيعة في السياسة والقضاء أمثال أحمد بن سهل البلخي سنة ٣٢٢هـ[2].

إن الكتاتيب أُنشئت لتوجيه الصبيان دينياً وعلمياً، فكان علىٰ الطالب أن يحفظَ القرآن الكريم وأنْ يُلم بالفقه وباللغة والنحو وكان شاعرنا المتنبي ممن حفظوا القرآن الكريم أو حفظوا أجزاء كبيرة منه، ودرس علوم العربية شعراً ولغة وإعراباً.

شيوخ المتنبي:

أجمعَ الرواةُ علىٰ أن المتنبي وُلِد بالكوفة وبها نشأ وتأدب، ولما اشتد ساعده هاجر إلىٰ العلماء ولقي أصحاب المبرد أبي العباس محمد بن يزيد فقرأ علىٰ أكابرهم منهم: أبو إسحاق الزجّاج، وأبو بكر بن السراج، وأبو الحسن الأخفش.

ولقي أصحاب أبي العباس أحمد بن يحيىٰ ثعلب فقرأَ علىٰ أبي موسىٰ الحامض وأبي عمر الزاهد وأبي نصير.

ولقي أصحاب أبي سعيد السّكري فقرأَ علىٰ نفطويه وابن درستويه. ثم لقي خاتم الأدباء وبغية النجباء، عالم عصره، أبا بكر محمد بن دريد فقرأ عليه ولزمه،

---

(١) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ص٥٦.

(٢) المرجع السابق ص٥٤.

ولقي بعده أكابر أصحابه منهم أبو علي الفارسي وأبو القاسم عمر بن سيف البغدادي وأبو عمران موسىٰ[١]، وقد ناقش عزّام في مؤلفه ما ورد بالرواية السابقة فقال: هذه الرواية عن شيوخ المتنبي تحتمل الصدق في جملتها لا في تفصيلها ومن المرجّح أنَّ المتنبي أخذ عن ابن دريد في آخر حياته، وأما الفارسي فقد التقىٰ به الشاعر في حلب وفي شيراز في بلاط عضد الدولة[٢].

ولعل إغفال المصادر ذكر شيوخ المتنبي وأساتذته الذين تتلمذ علىٰ أيديهم المتنبي هي التي دفعت طه حسين إلىٰ القول بأن الشاعر «تعلم علىٰ غير معلم ولم يأخذ ثقافته وأدبه عن الأساتذة والنقاد وإنما أخذها عن الكتب والصحف»[٣].

البيئات التي عاش فيها الشاعر:

١ ـ الكوفة:

ولد المتنبي بالكوفة، وتعلّم بكتّابها، وعاش في أرجائها متنقّلاً بين مجالسها المختلفة في المساجد، ودكاكين الوراقين، وفي مَسْقَط رأْسه تفتحت موهبته الشعرية، وذلك لأنها كانت بيئة لغة وشعر وأدب. فنشأ مؤهلاً بحكم ظروف موطنه.

إن ملازمة المتنبي لدكاكين الوراقين مكنته من الاطلاع علىٰ كثير من نوادر المؤلفات، وهَيّأت له سبيل الاتصال بكثير من المثقفين. فلم تكن مهمة دكاكين الوراقين بيع الكتب بل امتدت إلىٰ تهيئة جو علمي يلتقي فيه العلماء فيستفيد منهم، وقد حفلت قائمة أسماء الوراقين، بشخصيات لامعة كابن النديم، وابن كوجك[٤].

---

(١) ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام: د. عبد الوهاب عزام ص٤٠-٤١.
المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث: د. محمد عبد الرحمٰن شعيب ص١٥.
ثقافة المتنبي وأثرها في شعره: هدىٰ الأرناؤوطي ص٢٥.

(٢) ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام: د. عبد الوهاب عزام ص٤١.

(٣) مع المتنبي: طه حسين ص١١٣.

(٤) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ط٤ ص٦٣.

obeikandl.com

يقول البديعي[1]: إن المتنبي تعلم القراءةَ والكتابةَ وأنه أخذ علمه من ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم، قال محمد بن يحيىٰ العلوي: أخبرني ورّاق، قال: ما رَأَيْتُ أحفظ من ابن عيدان، فقلت له: كيف ذلك؟

فقال: كان اليوم عندي ابن عيدان، وقد أحضر رجل كتاباً نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ ابن عيدان ينظر فيه طويلاً.

فقال له الرجل: يا هذا أُريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك! فإنْ كنت تريد حفظه فهذا يكون بعد شهر.

قال له ابن عيدان، فإن كنت حفظته في هذه الفترة فمالي عليك؟

قال: أهب لك الكتاب.

قال: فأخذت الكتاب من يده، فأقبل يتلوه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آخره.

٢ ـ البادية:

نقل البديعي عن أبي الحسن العلوي أنَّ المتنبي[2] «صحب الأعراب في البادية وجاء بعد سنتين بدوياً قحّاً» فرحيله إلىٰ البادية وإقامته فيها لم يكن إلاّ ليلقي الأعراب الخلَّص، ويسمع عنهم، وهذا دليل علىٰ غرامه وحبّه للغة، فرحلته إلىٰ البادية والتطواف بين أرجائها أكسبته ثروةً لغويةً وفصاحةً في التعبير، كانت عدته فيها أهل نفسَه لقول الشعر ومن محاورة أهل العلم والأدب.

٣ ـ حلب:

عاش المتنبي في بلاط الأمير سيف الدولة منذ عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة ٣٣٧هـ إلىٰ عام خمسة وأربعين وثلاثمائة ٣٤٥هـ أي ما يقارب ثماني سنوات، كان ينهل فيها من معين الثقافات التي عرفت في هذه البيئة من علمية وأدبية.

---

(١) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٢١.

(٢) الأنباري: نزهة الألباء ص٢٩٥.

وقد استطاع سيف الدولة أن يجذب إليها كوكبة من العلماء والأدباء قلما تراه في بلاط أمير مثله.

لقد كان الأمير سيف الدولة الذي عاش الشاعر في كنفه رجلاً مثقفاً تتلمذ علىٰ ابن خالويه.

كان الأمير يجمع العلماءَ والأدباءَ في مجلسه كلّ ليلة فيتباحثون في شؤون العلم والأدب، وتدور بينهم المناظرات والمساجلات.

قال الخالديان[1]: «إن المتنبي كان كثير الرواية جيد النقد» وقد عاصرا المتنبي واجتمعا به في حلب وفي بلاط سيف الدولة، وتوثيق شهادتهما يأتينا ممثلاً بالمحاورة التالية التي جرت بين المتنبي وسيف الدولة.

استنشد سيف الدولة يوماً المتنبي قصيدته التي أولها:

علىٰ قَدْر أهل العزم تأتي العزائمُ

وكان مُعْجباً بها، كثير الاستعادة لها، فاندفع المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله فيها:

وَقَفْتُ وما في الموتِ شَكٌّ لواقِفٍ كأنك في جفْنِ الرّدى وهو نائِمُ
تمرُ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهك وضّاحٌ وثغركَ باسِمُ

قال: لقد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على امرىء القيس بيتاه:

كأني لم أركب جواداً للذّة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزّق الروى ولم أقل لخيلي كرّى كرة بعد أجفال

وبيتاك لم يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين، وكان ينبغي لامرىء القيس أن يقولَ:

كأني لم أركب جواداً ولم أقُل لخيلي كرى كرة بعد أجفال
ولم أسبأ الزّق الروى للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

(١) مجلة المورد، العدد الثالث، ١٩٧٧ ص٢٥.

فقال المتنبي[1]: «أيّد الله مولانا، إنْ صحّ الذي استدرك علىٰ آمرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولاي يعلم أنّ الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك، لأنَّ البزازَ يعرفُ جملته، والحائكُ يعرف جملته وتفاريقه، وإنما قرن امرؤ القيس لذّة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن الشجاعة في منازلة الأعداء بالسماحة في شراء الخمر للأضياف، وأنا لما ذكرت الموت في أولِ البيت اتبتعته بذكر الرّدىٰ في آخره ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوساً وعينه باكية قلت: وجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنىٰ وإنْ لم يتسع اللفظ لجميعها» فدفاع أبي الطيب عن نفسه وعن آمرىء القيس، وردّ تهمة عدم الملائمة بين الشطرين عند كل منهما تستند إلىٰ وعي نقدي عميق بالمعنىٰ الذي تناوله كل منهما وتجاوز عن المقابلة الشكلية التي تتراءىٰ للقارىء غير المتمرس ينقد الشعر أو نظمه والتعمق في معانيه والمسألة قال: «فإن حائك الثوب غير بائعه».

حقاً إنّ المتنبي كان يتمتع بثقافة لغوية واسعة بغريبها ونادرها وهذه الثروة مزية يتمتع بها كبار الشعراء.

ووقع جدال بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه في اللغة، بحضرة سيف الدولة، قال الأمير: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم فيها بما قوّىٰ حجة أبي الطيب اللغوي، وضعّف قول ابن خالويه، فأخرج ابن خالويه مفتاحاً حديداً ليكلم به المتنبي، فقال له: اسكت، ويحك، فإنك أعجميّ وأصلك خوزي، فما لك وللعربية؟ فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بالمفتاح فأسال دمه علىٰ وجهه وثيابه فغضب المتنبي لذلك ـ إذ لم ينتصر له سيف الدولة قولاً أو فعلاً.

في هذا الوسط عاش شاعرنا، وشارك بشعره وعلمه في هذه النهضة العظيمة، في هذا الوسط كان شاعرنا حريصاً علىٰ إحراز المكانة اللائقة بين خصومه.

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص٢٢.

٤ ـ مصر:

بعد أن رحل المتنبي عن حلب توجه إلىٰ مصر فوجد فيها بلداً ذا حضارة عريقة، نشطت فيها الحياة الفكرية وزخرت بكل ما عرف القرن الرابع الهجري من معارف وآراء.

عاش المتنبي في بلاط كافور الذي جمع إلىٰ دهائه السياسي لماماً باللغة والأدب جعل كافور من مجلسه ندوة تُسمع فيها السير وأخبار الدول ويلتقي فيها الشعراء فيتناشدون الأشعار، ويدور بينهم النقاش في مختلف المسائل، ووجدت هذه المجالس في قصور وزرائه من أفاضل العصر كالوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حَنْزابة الذي عرف بطول باعه في علوم الحديث، وٱمتدت هذه المجالس إلىٰ المساجد في مصر التي ضمّت بين أرجائها حلقات علمية كانت مقصد رواد العلم وطلاب المعرفة في كل مكان.

يقول ابن حجر العسقلاني[1]: «ومما يذكر في سرعة جواب المتنبي وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن حنزابة وفيه أبو علي الآمدي الأديب المشهور فأنشده المتنبي أبياتاً جاء فيها التهنئات».

فقال له أبو علي: التهنئة مصدر والمصدر لا يجمع.

فقال المتنبي لآخر بجانبه: أمسلم هو؟

فقال: سبحان الله! هذا أستاذ الجماعة.

فقال المتنبي: إذا صلّىٰ المسلم وتشهد أليس يقول: التحيات؟ قال: فخجل أبو علي وقام.

٥ ـ بغداد:

قصد المتنبي بغداد في صباه لينهل من معين المعارف التي حفلت بها وذلك قبل سنة ٣٢١هـ علىٰ أرجح الأقوال.

---

(١) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان جـ١ ص١٥٩-١٦٠.

وقد اتصل الشاعر بعلماء بغداد كأبي بكر بن دريد، ونفطويه، وأبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه. ولكن قِصَر المدة التي قضاها الشاعر ببغداد جعلت استفادته قليلة[1].

وبعد مغادرة مصر اتجه المتنبي إلىٰ بغداد مرة ثانية بعد أنْ ذاع صيتُه في الآفاق، ولكن بغداد لم تفتح صدرها للشاعر.

وفي بغداد اجتمع المتنبي بنخبة من علماء العربية كالسيرافي والرماني ومحمد بن جعفر المراغي وعلي بن حمزة، وابن جنى، والأصفهاني والحاتمي ومن الشعراء علي بن محمد بن البقال، وحسين بن أحمد بن الحجاج ومحمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي[2].

ثقافة المتنبي

كان المتنبي مثقفاً ثقافةً عربيةً إسلاميةً واسعةً بكل ما عُرف لعصره من معارفَ وآراء، فقد اتجه بشعره إلىٰ أن يستوعبَ أساليب هذه المعارف والآراء، وأن يمثل عناصره المتنوعة حتىٰ ينالَ إعجاب العلماء المثقفين لعصره.

إن مصادر ثقافة المتنبي كانت من العلماء والأدباء وحوانيت الوراقين وهي مصادر الثقافة العظمىٰ في ذلك العصر لأنَ بائعي الكتب لم يكونوا مجردَ تجار ينشدون الربح وإنما كانوا في أغلب الأحايين أدباء ذوي ثقافة يسعون للذَّة العقلية من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع، وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء[3].

---

(١) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي وأثرها في شعره ص٤٥.

(٢) المرجع نفسه ص٤٥-٤٦.

(٣) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ص٦٣.

obeikandl.com

وقد كان المتنبي حريصاً علىٰ قراءة دواوين الشعراء، فقد ذكر أبـو القاسم عبد الله بن عبد الرحمٰن الأصفهاني، أنّه قيل للمتنبي: معنىٰ بيتك هذا، أخذتَه من الطائي، فأجاب المتنبي، الشعر جادة وربما وقع حافر علىٰ حافر[١].

كان المتنبي يحفظ ديوانيْ الطائييْن ويستصحبهما في أسفاره[٢].

إن جمهور المتأدبين يعرف أبا الطيب شاعراً واسع المعرفة باللغة ولكنهم لا يعرفونه إماماً من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري، يقول الخطيب البغدادي[٣] «طلب العلم وعلم العربية، ونظر في أيام الناس، وتعاطي قول الشعر منذ حداثته حتىٰ بلغ فيه الغاية التي فاق فيها أهل عصره وعلا شعراء وقته».

من هذا نرىٰ أنّ أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها منزلة عظيمة قلّ أن يصل إليها أحد.

يقول البديعي: «كان المتنبي من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين علىٰ غريبها، ولا يُسأل عن شيء إلاّ استشهد بكلام العرب من النظم والنثر حتىٰ قيل إنّ الشيخ أبا علي الفارسي. قال له يوماً: كم لنا من الجموع علىٰ وزن فِعْلىٰ؟ فقال له في الحال: «حِجْلىٰ[٤] وظِرْبى»[٥].

قال الشيخ أبو علي: طالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ علىٰ أن أجد لها ثالثاً فلم أجد[٦].

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب المتنبي بين ناقديه ص١٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ١ ص١٠٣-١٠٥.
ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٠٦.
البغدادي: خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٣.
بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٥٥ حاشية رقم ٤.

(٤) حِجْلىٰ: جمع حجلة وهي طائر يسمىٰ القبجة.

(٥) ظِرْبى: دويبة منتنه الرائحة.

(٦) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص١٤٣.

وحسبك من يقول مثلُ أبي علي في حقه ذلك.

قال الخالديان: «كان أبو الطيب كثير الرواية جيد النقد[1]، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلَّعين علىٰ غريبها».

كان أبو الطيب شغوفاً بالقراءة والاطلاع، وقد وجه لعلوم النحو واللغة اهتماماً كبيراً وهذا مما جعله إماماً من أئمة اللغة مما حدا ابن خلكان أن يقول: «بأنه كان من المكثرين من نقل اللغة»[2].

كما أن علي بن حمزة راوية المتنبي أشار إلىٰ اطّلاع الشاعر علىٰ كتاب المنقوص والممدود لابن ولاّد. وقد قرىء هذا الكتاب علىٰ الشاعر في مصر سنة ٣٤٧هـ وله عليه «لاحظاته[3]، وذكر ابن الدّهان فقال: إنّ المتنبي كان يحفظ كتاب الحدود في النحو للفراء[4].

لقد حَظيت الدراسات اللغوية والنحوية باهتمام كبير في البيئات التي عاش فيها المتنبي والتي سبق أن تحدثنا عنها.

فقد التقىٰ شاعرُنا بأعلام اللغة كابن خالويه، والتقىٰ أبا علي الفارسي في الشام وعند عضد الدولة، كما التقىٰ ابن جنّي وقرأ ديوانه عليه، أما علي بن حمزة فقد كان راوية شعره.

أما ثقافة المتنبي الدينية فقد عاش شاعرُنا في الكوفة مسقط رأسه، ومصدر التشيع لآل علي وأولاده، ودخل كتّاباً فيه أشراف أبناء العلويين وهناك درس اللغة والنحو والشعر، وقد تضافرت عواملُ متعددة وجَّهته لدراسة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف والفقه والتصوف.

---

(١) مجلة المورد، العدد الثالث ١٩٧٧ ص٢٥.

(٢) عبد الوهاب العزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٠٤.

(٤) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٥٧.

openkandil.com

إن نشأة الشاعر الدينية بالكوفة هيأت له علاقة مبكرة بكتاب الله، وطبيعة تكوينه الفكري بوصفه شاعراً وهب نفسه لقرض الشعر وجَّهتْه ليمثل أرقىٰ نمط بلاغي في الأساليب العربية.

وقد كان اهتمام المتنبي بالنحو واللغة دافعاً لحفظ القرآن الكريم، أو أجزاءً كبيرةً منه، كان الشاعر يستند إليها في المناقشات التي دارت بينه وبين من أملىٰ عليهم ديوانَه.

إن شاعرنا ذو ثقافةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ واسعة، وكان محباً للعلم فلم يترك باباً من أبواب الكتب إلا قرأه كاللغة والأدب والفلسفة والمنطق.

ثقافة المتنبي اللغوية:

لقد كانت ثقافة أبي الطيب المتنبي اللغوية واسعةً وإليك بعضَ الأمثلة التي تثبت ذلك، فقد انتُقد المتنبي لقوله:

أُحَادٌ أمْ سُداسٌ في أُحَادِ ... لُيَيْلَتُنا المنوطةُ بالتّنادِ[1]

قال أبو الطيب: يقال أُحاد وثُناء وثُلاث ورُباع إلىٰ عُشار في المذكر والمؤنث غير المصروف، والفراء يصرفها، إذ جعلها نكرات، وكل ما لا يتصرّف من الأسماء يصرف في الشعر، لأنَّ الصرف الأصل، وهذا الذي نسب إليه في العدد، فيقال ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي إلىٰ عشاري[2].

قال أبو النجم:

فوق الخماسي قليلاً يفضله ... أدرك عقلاً والرهان عليه

وأنشد:

ضربت خماس ضربة عَبْشَمي ... أدارَ سُداسَ إلاّ يستقيما

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٥٣.

(٢) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٦.

وقد احتج الشاعر لاستعماله «سُداس» بقوله: إنّه قد جاء عن العرب خُماسَ وسُداسَ إلىٰ عَشار. ذكره أبو حاتم في كتاب الإبل، وقد زعم أبو عبيدة في المجاز أنّه لا يعلمهم قالوا فوق «رباع» وقال: كان أبو حاتم تبعَ أبا عبيد في قوله في كتاب المذكر والمؤنث، ورباع رباع ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك... ثم رجع عنه فقال في كتاب الإبل ورباع إلىٰ العشرة[1].

قال أبو الطيب: وأما لُيَيْلَتُنا فتصغير تعظيم[2].

لقد كان المتنبي يستعين لإيضاح المعنىٰ، بحصيلته اللغوية الوفيرة فيذكر للّفظ عدة مترادفات كقوله:

يهابُهُ أَبْسَأُ الرِّجال به وتَتّقي حدَّ سيْفِهِ البُهَمُ[3]

بسئت به: أي أنست به، وكذلك بسأت وبهأت. وأنشد:

فقد بهأت بالجاهلات إخالها وسيفٍ كريمٍ ما يزالُ يصوعُها[4]

ثم قال:

يصوغُ عنوقَها أحوىٰ زنيم له ظاب كما صَخِبَ الغريمُ[5]

فقد أورد الشاعر مرادفاً للفظ الذي أورده في بيته وعزّز رأيه بشاهد شعري وعندما لمح في الشاهد لفظاً قد يُبْهم المعنىٰ معه قام بشرحه.

وفي شرح البيت التالي:

إذا عَرَضَتْ حاجٌ إليه فنفسُهُ إلىٰ نَفْسِه فيها شفيعٌ مُشَفَّعُ[6]

---

(١) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٥٨.

(٢) عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٦.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٦٠.

(٤) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٦٤.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٤٣.

obeikandl.com

قال أبو الطيب يقال حاجة وحاج وحاجات وحوج وعلىٰ غير القياس حوائج. وتقول العرب في نفسي منه حوجاء إلىٰ حاجة وأنشد:

ألا ليتَ سوقاً بالكُنانة لم يَكُنْ إليها لحاج المسلمين طريق

وقال آخر:

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي وعن حِوَج قضّاؤها من شفائيا

وأنشد لامرىء القيس: لنقضي حاجات الفؤاد المعذب.

وأنشد الفراء:

نهار المرء أمثلُ حين يقضي حوائجَه من الليل الطويل

وزعم الأصمعي أنّ حوائج مولده. قال أبو الطيب: «وهي كثيرة علىٰ ألسن العرب خرجت عن القياس». قال علي بن حمزة وأنشدني أبو الطيب للشماخ:

تقطّع بيننا الحاجات إلا حوائجَ يعتسفن مع الجرى

قال حوائج جمع حائجة علىٰ القياس وهو صحيح[1].

وحين سُئل عن ضبط لفظتي الحضارة والبداوة في قوله:

حُسْنُ الحضارةِ مَجْلوبٌ بِتطْرِيَةٍ وفي البَداوَةِ حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ[2]

ذكر رأي الأصمعي وأبي زيد قال أبو زيد البَداوة والحضارة وسمع الحضارة والبداوة من العرب وأنشد الأصمعي:

فمن تكن الحضارة أعْجبتْه فأيُّ رجالِ باديةٍ ترانا[3]

وهذا مما يدل علىٰ سعة اطلاع الشاعر واستقصائه لأقوال العلماء وقد يستشهد ببعض القراءات القرآنية كما قال في تسويغ حذفه لتنوين «علي» في بيته.

---

(١) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٧.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٦٨.

(٣) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٧٠.

في رُتْبةٍ حَجَبَ الوَرَىٰ عن نَيْلِها وعلا فَسَمَّوْهُ عليَّ الحاجِبَا[1]

تبع في ذلك قراءة من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

ويورد في بعض الأحيان شواهدَ من الحديث الشريف مثل ما ذكر في قوله:

إذا عذلوا فيها أَجبْتُ بأنَّةٍ حُبِّبتا قلباً فؤاداً هيا جُمْلُ[2]

فقد أجاب حين سئل عن تصغير «حبيبة» بأنّه صغرها للتقريب كقول النبي ﷺ: «قدّموا أصحابي أصَيْحابي»[3].

وهذه بعض الأمثلة التي تدلّ علىٰ سَعة ثقافة الشاعر اللغوية وفيها يظهر لنا أنّه كان حقاً إماماً من أئمة اللغة لا يسأل عن شيء إلا واستشهد به بكلام العرب من النظم أو النثر أو القرآن أو الحديث.

ثقافة المتنبي الأدبية:

إن ثقافة الشاعر الأدبية هي حصيلةُ الشاعر من التراث الشعري الذي تناهىٰ إليه عبر القرون، وهذا الجانب أكثر أهميةً من غيره، إذْ ليس لشاعر غِنىً عنه.

لم يكن المتنبي ليغفل عن أهمية التراث الأدبي في حياة أي شاعر، ومن ثم فقد أشار المتنبي إلىٰ بعض الجوانب المهمة في عملية الإبداع الفني، أي دور الخيال في عملية النظم، ومدىٰ استفادته مما حفظه ليستمد منه الصور والمعاني التي يوردها في شعره، ومن الأمثلة علىٰ ثقافته الأدبية الواسعة قوله:

تَركْتَ جماجِمَهُم في النّقا وما يتخلّصْن للنّاخِلِ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٢٨.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٨٢.

(٣) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٧١.

(٤) النقا: الكثيب من الرمل.

الناخل: من نخل ينخلُ أي تركت جماجم أصحاب الخارجي وقد فارقت أجسامها في الرّمل أوقعت بها من الضرب حتىٰ اختلطت بالرّمل فلم يتخلص لناخلها.

العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣١.

فقد قدّم الشاعر في هذا البيت صورةً لجماجم القتلىٰ التي تركها الممدوح في أرض المعركة وقد اختلطت أجزاؤها في الرمال لوقع حوافر خيله القوية عليها حتىٰ لو نخل الرمل الذي قتلتهم به فلم يحصل من رؤوسهم شيء لشدة اختلاطها بأرض المعركة.

لقد وصف المتنبي كثرة القتلىٰ واختلاط أجسادهم بأحجارها في قصيدة أخرىٰ قال فيها:

أحْجـارُ نـاسٍ فَـوْقَ أرضٍ مـنْ دَمٍ ونجـومُ بَيْـضٍ[1] فـي سمـاءِ قَتـام[2]

أي مكان الحجارة ناس قتلىٰ فوق تلك الأرض، والأرض دماء، وصارت البيضُ نجوماً لامعة في سماء من الغبار.

تقول هدىٰ الأرناؤوطي[3] إنّ قول المتنبي (أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ من دمٍ) استمد هذا التشبيه من قول البحتري:

نثـرت علـىٰ الخليـج الهـام حتّـىٰ كـأنّ حصـا الخليـج طلـىٰ وهـامُ[4]

قال المتنبي:

أغـركـمُ طـولُ الجيـوشِ وعـرضُهـا! علـيٌّ شـروبٌ للجيـوش أكـولُ
إذا لـم تَكُـنْ لليْـثِ إلا فـريسـةً غـذاهُ ولـم يَنْفَعْـكَ أنـكَ فيـلُ[5]

أي إن سيف الدولة يُقبل علىٰ الجيوش مهما عظمت كما يقبل علىٰ طعامه وشرابه مثله في ذلك كمثل الفيل مع الأسد، إذ إنّ ضخامة الفيل وعظم خلقه لا تحول دون فتك الأسد به.

---

(١) البيض: المغافر.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٣.
(٣) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص١١٩.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٠٧.
(٥) المصدر السابق.

تقول الأرناؤوطي[1]: «ذكر الأكل والشرب علىٰ سبيل الاستعارة سيراً علىٰ هدي أبي تمام في قوله:

فـي مكـر للـروع كنـت أكيـلا للمنـايـا فـي ظلـه وشـريبـا

عاش الشاعر في بلاط الحمدانيين، وكان شعره معبراً عن آمال سيف الدولة وأمانيه، ومهللاً لانتصارات ذلك الأمير، وبالرغم من أن الحمدانيين شيعة إلاّ أن صوت الشعر الشيعي خافت مثل قوله:

نَصَـرْتَ عليـاً يـا ابنـه ببـواتِـرٍ من الفِعْل لا فَلّ لها من المضارِبِ
وأبْهـرُ آيـاتِ التّهـامـيِّ أنَّـهُ أبوكَ وأجدىٰ ما لَكُمْ مِنْ مَناقِبِ[2]

أي مدح العلويين بانتسابهم إلىٰ الرسول ﷺ، وقد ذكر أبناء فاطمة رضي الله عنها:

كَـذَا الفـاطميُّـونَ النَّـدىٰ فـي بَنـانِهِـمْ أعزُّ امِّحاءً مِن خُطوطِ الرّواجِبِ[3]

القرآن الكريم:

لقد استشهد شاعرنا بالقرآن في شرحه لبعض المفردات التي أوردها في شعره واحتج ببعض الآيات في ملاحظاته النقدية التي وجهها الشعر غيره مثل قوله في بيت الأعشىٰ:

وهـل تنكـر الشمـسُ شمـسُ النُّهـا والقمـرُ الـواضـحُ الأبـرصُ

إذ عاب علىٰ الأعشىٰ لفظَ الأبرص قائلاً: لو كانت لفظة الأبرص في كتاب الله لكدّرت شرب بلاغته. ولما أراد الله تعالىٰ كنىٰ عنه بقوله: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

وقال مشيراً إلىٰ ادعاء النبوة الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

---

(١) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص١٢٥.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٥٤.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١٥٢.

أرىٰ المسلمينَ مع المشركينَ إمّا لعَجْزٍ وإما رَهَبْ
وأنتَ معَ اللهِ في جانبٍ قليلُ الرقادِ كثيرُ التَّعَبْ
كأنكَ وحدَكَ وحَّدْتَهُ ودانَ البريةُ بابْنٍ وأَبْ[1]

التصوف:

عاصر المتنبي فترة مزدهرة من تاريخ التصوف الإسلامي في أوائل القرن الرابع الهجري حيث انتشرت الصوفية في أنحاء العالم الإسلامي وانتظموا طوائف وجماعات وأصبح لهم مريدون وأنصار واستطاع كثير منهم التعبير عن تأملاتهم ومواجيدهم في أشعارهم التي تعد من دواعي ازدهار التصوف وانتشاره.

لقد كان للتصوّف أثرٌ في شعْر المتنبي، ولدىٰ قراءة الإنسان لديوان الشاعر يجد أنّ ديوانه يَسْتَوْعِبُ حيّزاً واسعاً من خواطره وأفكاره. اقرأ هذه الأبيات التي يقولها في بعض ممدوحيه:

ذا السِّراجُ المنيرُ هذا النّقِيُّ الجيـ ـيْبِ هذا بقيةُ الأبْدالِ[2]
فخُذا ماءَ رِجْلِهِ وانْضحا في الـ ـمُدْنِ تأمَنْ بوائِقَ الزَّلْزالِ
وامسحا ثوبَهُ البقيرَ علىٰ دا ئِكُما تُشْفَيا من الأعلال[3]

عند قراءة الأبيات السابقة تحس بأنَّك أمام شاعرٍ صوفي، يصوغ معانيه صياغةً صوفية، فهو يمدح صاحبه كما تمدح الصوفية أقطابهم فيجعلَ بقية الأبدال وهم من أوْلياءِ الصوفيةِ المصطَفين، ومن الكرامات التي أضْفاها عليه بركته التي

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٠٤.

(٢) النقي الجيب: الطاهر من العيب.
الأبدال: العُبّاد وسموا أبدالاً لأنهم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل: إذا مات أحدهم أبدل الله مكانه آخر، منهم لا ينقصون حتىٰ تقوم الساعة وعددهم ٤٠ رجلاً.

(٣) البقير: ثوب لا كم له.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٩٦-١٩٧.

تمنع الخراب والدّمار الذي يحدثه الزلزال، ومعالجته المرضىٰ بمس ثوبه الطاهر المبارك، وعلىٰ هذا النمط الصوفي تراه يذكر الخضر:

إذا ما ذَكَرْنا جُودَه كان حاضراً نأىٰ أو دنا يسعىٰ علىٰ قَدَمِ الخِضْرِ[1]

يقول شوقي ضيف[2]: «إن المتنبي كان ينزع بشعره منزعاً صوفياً يحاولُ به أن يجدّدَ في فنّه ولكنه تجديدٌ غريب».

تجلىٰ لنا فأضأنا به كأنّا نجومٌ لقينا سُعودا[3]

فهو يصنع فكرة التّجلّي التي يُؤمنُ بها الصوفية، وإذا استعرضنا مصطلحات الصوفية التي تسربت إلىٰ أسلوبِ المتنبي ترىٰ فيها:

١ ـ مصطلح الكشف:

ولمّا فَقَدْنا مِثْلَهُ دامَ كَشْفُنا عليه فدامَ الفَقْدُ وانكشَفَ الكَشْفُ[4]

٢ ـ مصطلح الحال:

ولكن تفوقُ النّاسَ رأياً وحكمةً كما فُقْتَهُمْ حالاً ونَفْساً ومَحْتِدا[5]

٣ ـ مصطلح اليقين:

نَفَتِ التَّوهمَ عَنه حِدّةُ ذِهْنِهِ فَقَضىٰ علىٰ غيْبِ الأمور تيقُّنا[6]

الفقه:

يُعَدُّ الفقه من آثار الثقافة الدينية التي ظهرت في شعر الشاعر حيث اتخذ المتنبي من شعره معرضاً لبعض الأحكام الفقهية، وقد ظهر ذلك عليه مبكراً.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ ٢ ص١٣٧.
(٢) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه ص٣١٤.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٦٦.
(٤) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٨٧.
(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٢٨٩.
(٦) المصدر نفسه جـ٤ ص١٩٩.

قال أبو الطيب:

أيـــا خـــدّدَ الله وَرْدَ الخُـــدودِ وقـــدَّ قـــدودَ الحِســـانِ القُـــدودِ
تَعَجَّـــلُ فـــيَّ وُجُـــوبُ الحُـــدُودِ وحَـــدّي قَبْـــل وُجُـــوبِ السُّجـــودِ
فمـــا لَـــكَ تَقْبَـــلُ زُورَ الكـــلامِ وقَـــدْرُ الشَّهـــادَةِ قَـــدْرُ الشُّهـــودِ
فـــلا تَسْمَعَـــنَّ مِـــنَ الكـــاشِحيـــنَ ولا تَعْبَـــأَنَّ بِمَحْـــكِ اليَهُـــودِ
وكُـــنْ فـــارِقـــاً بيـــنَ دَعْـــوىٰ أرَدْتُ ودَعْـــوىٰ فَعَلْـــتُ بِشَـــأْوٍ بعَيـــدِ[1]

ومن أقواله التي يبدو فيها الأثر الفقهي واضحاً قوله:

وزارَكَ بـــي دونَ الملـــوكِ تحـــرّجـــي إذا عَنَّ بحرٌ لم يُجز لي التيممُ[2]

ثقافة المتنبي الفلسفية:

تضافرت عدة عوامل هيأت للمتنبي ثمار الفلسفة التي نضجت في القرن الرابع الهجري منذ نشأته بمدينة الكوفة، حيث زخرت المساجد بألوان الجدل بين مختلف الفرق الإسلامية، وقد التقىٰ الشاعر بأحد أعلام الفلسفة البارزين أبي نصر الفارابي، الذي عاش في كنف الأمير سيف الدولة الحمداني أثناء وجود الشاعر بحلب ووجود مثل هذه الشخصية في بلاط سيف الدولة، أضفت علىٰ مجالسها شيئاً من ألوان الجَدل الفلسفي.

يقول شوقي ضيف[3]: «لقد نقل المتنبي كثيراً من الأفكار والعبادات الفلسفية إلىٰ الشعراء ولكنه لم يحولها عن حقيقتها، ولعل أول ما يقابلنا عن ذلك حكمه الكثيرة التي شاعت في شعره وعرف بها عند القدماء والمحدثين»، ويقول شوقي ضيف[4] أيضاً: «من يقرأ في ديوان المتنبي يحس إحساساً واضحاً بأن الشعر كان

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤١-٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٩١.
(٣) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر الحديث ص٣٢٤.
(٤) المرجع نفسه ص٣٢٦.

يعتمد عنده علىٰ العقل المتفلسف والصياغة الفلسفية» ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما قاله في مسألة فلسفية تتعلق بأصل الإنسان.

نحن بنو الموتىٰ فما بالُنا نَعافُ ما لا بُدّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبْخَلُ أيدينا بأرواحِنا علىٰ زمانٍ هيَ من كَسْبه
فهذه الأرواحُ من جوِّه وهذه الأجسامُ من تُرْبه[1]

ونظراً لسعة ثقافته الفلسفية انظر إليه كيف يحتال احتيالاً شديداً علىٰ شارات التعبير الفلسفي وسماته يدخلها في نماذجه الشعرية.

الجيشُ جَيْشُك غير أنكَ جيشُهُ في قَلْبِهِ ويمينهِ وشمالِهِ[2]

وقوله:

فتىً يشتهي طولَ البلادِ ووَقْتُهُ تضيقُ به أوقاتُهُ والمقاصِدُ[3]

أمّا ثقافته بتاريخ الجاهلية والإسلام فكانت واسعةً أيضاً، اسمعه كيف يبيّنُ عواقب الشقاق.

وإذا كان في الأنابيبِ خُلْفٌ وقع الطيشُ في صُدورِ الصَّعادِ[4]

جعل الأنابيب مثلاً للأتباع والصدور مثلاً للرؤساء.

يقول: إذا اختلفت الخدم جرىٰ بين السادة التنازع والتحارب كالرماح إذا اختلفت أنابيبها لم تستقم صدورها.

أشْمَتَ الخلفُ بالشُّراةِ عِداها وشفىٰ ربَّ فارسٍ من إيادِ[5]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢١١-٢١٢
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٦٤.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٢٧٥.
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٤.
(٥) الشراة: الخوارج.
ربّ فارس: سابور ذو الأكتاف.

وتولىٰ بني البريديّ بالبصرةِ حتىٰ تمزقُوا في البلادِ
وملوكاً كأَمْسِ في القرب منّا وكَطَسْمٍ وأُخْتِها في البعاد[1]

فتراه يذكر في الأبيات السابقة انقسام الخوارج ووقعة ملك الفرس وقبيلة إياد وما أصاب بني البريديّ وطسم وأختها جديس.

ولم يفت المتنبي أنْ يشير إلىٰ بعض المعتقدات التي عرفها العرب أو مَنْ اتصل بهم من الأمم كالفرس والهنود، وقد أشار إليهم القرآن الكريم بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

وإلىٰ هذه الديانة أشارَ المتنبي في قصيدة مدح بها سيف الدولة:

وكيف تُقَصِّرُ عن غايةٍ وأمُّكَ مِنْ لَيْثِها مُشْبِلُ[2]
وقد ولَدَتْكَ فقال الورىٰ ألَمْ تكُنِ الشَّمْسُ لا تَنْجُلُ[3]
فَتَبّاً[4] لدين عبيدِ النجومِ ومَنْ يدَّعي أنَّها تَعْقِلُ
وقد عَرَفَتْكَ فما بالُها تراكَ تَراها فلا تنْزلُ
ولو بِتُّما عند قدرَيْكُما لَبِتُّ وأعلاكُما الأسْفَلُ[5]

وقال مشيراً إلىٰ خلود النّجوم في مُعْتَقَد الصابئة:

وقد زعمُوا أنّ النُّجومَ خوالدٌ ولو حارَبَتْهُ ناحَ فيها الثَّواكلُ[6]

وذكَرَ عبادةَ المجوسِ للنّار:

---

(١) طسم وأختها: قبيلتان من عاد.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٣٤.
(٢) مشبل: الأنثىٰ من السباع.
(٣) النجل: النسل.
(٤) التب: الهلاك.
(٥) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٧٢-٧٣.
(٦) المصدر نفسه جـ٣ ص١١٩.

أو كـــان للنِّيـــران ضـــوْءُ جبينِـــهِ عُبِدَتْ، فصارَ العالمونَ مجوساً[1]

كذلك أشار إلىٰ إباحة المجوس للزواج بالبنات والأخوات.

لِهـوىٰ النُّفـوس سـريـرةٌ لا تُعْلَـمُ عَـرَضـاً نَظـرْتُ وخِلْـتُ أنـي أسْلَـمُ
يا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الفوارسِ في الوغىٰ لأخـوكِ ثَـمَّ أرقُّ مِنْـكِ وأَرْحَـمُ
يـرنـو إليْـكِ مـع العَفـافِ وعنـدَهُ أنّ المجوسَ تُصيبُ فيما تحكُمُ[2]

ونتيجة لثقافته الواسعة أيضاً كان مُلِماً ببعض آراء السوفسطائية مثل:

هـوّنْ علـىٰ بصـرٍ مـا شـقَّ منظـرهُ فـإنّمـا يقظـاتُ العيـنِ كـالحُلُـمِ[3]

وكان علىٰ معرفة بآراءِ الدهريين:

وكـمْ لظـلام اللّيْـلِ عنـدك مِـنْ يـدٍ تُخَبّـرُ أنَّ المـانـويـةَ تكـذبُ[4]

وأشار إلىٰ مذهب القائلين بتناسخ الأرواح:

تمتـــعْ مِـــنْ سهـــادٍ أو رُقـــادٍ ولا تـأْمُـلْ كـرىً تحـتَ الـرِّجـام
فـإنَّ لثـالـث الحـاليْـنِ معنـىً سـوىٰ مَعْنـىٰ انتبـاهِـكَ والمنـام[5]

من هذا كله ندرك أنّ المتنبي كان علىٰ ثقافة عربيةٍ إسلاميةٍ واسعةٍ وكان علىٰ ثقافة واسعة بالأديان الأخرىٰ.

روىٰ البديعي أنّه كان يطالع الكتب كل ليلة قبل أنْ يهجعَ، كما أنّه كان يحمل كتبه معه في أسْفاره ويحرص عليها وكان قد حلّها قراءة وتصحيحاً.

وقد أعرب عن شغفه بالقراءة وأنسه بالكتب في قوله:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنىٰ سَرْجُ سابحٍ وخَيْرُ جليسٍ في الزَّمان كتابُ[6]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٩٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص١٢١-١٢٢.
(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص١٦٢.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص١٧٨.
(٥) المصدر نفسه جـ٤ ص١٤٩.
(٦) المصدر نفسه جـ١ ص١٩٣.

تنبؤ المتنبي

غادر المتنبي الكوفة إلىٰ بغداد، ثم خرج لوقته ميمّماً وجهه شطر الشام، فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها، بعلبك/ طرابس/ حمص، ثم كره الأرض التي نزلها، ثم صَعَّد سنته إلىٰ منبج وحلب واللاذقية وأنطاكية ثم اعتقل بحمص سنة ٣٢١هـ، لمّا قالوا به من ادعائه العلوية ثم النّبوّة ثم العلوية.

إن القول الذي لا يتطرّق إليه الشك، أنّ المتنبي سيق إلىٰ السجن، وأحاطت به جدرانه وذاق فيه ما يذوقه أمثاله من المضاضة والذّل والتعب والجوع والحرمان.

إن كثيراً من المؤرخين يؤوّلون ذلك السجن تأويلاً، فهم يزعمون أن أحمد أبا الطيب حينما شعر بالتفاف أعراب البادية حوله، وإقبالهم عليه، أراد لنفسه تمكّناً في قلوبهم وسلطاناً أوسع، وجاهاً أعلىٰ فادّعىٰ النبوة، وظاهرة ادّعاء النّبوّة حيّرت القدماء والمحدثين واستسهل البعض بسببها قبول ادّعاء المتنبي النّبوّة وقد تصفحت كثيراً من كتب من كتبوا عنه فوجدت أنهم ينتسبون إلىٰ عدة فئات.

أولاً: موقف القدماء:

الفئة الأولىٰ: هذه الفئة قبلت ادّعاء النّبوّة كالبغدادي[١] وابن خلّكان[٢] والسمعاني[٣] والبديعي[٤] والخطيب البغدادي[٥] وغيرهم.

الفئة الثانية: وهذه فئة متحفّظة لم تستبعدها كالثعالبي[٦] الذي ذكر أمر تنبّئه كرواية لا يتحمل مسؤوليتها، وأورد قصة خروجه طمعاً في السلطان.

---

(١) البغدادي: خزانة الأدب ص٣٨٢.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص١٢٢.
(٣) السمعاني: الأنساب ص١٠٦.
(٤) البديعي: الصبح المنبي ص٥٢-٥٥.
(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٢-١٠٥.
(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر ص١٦١.

الفئة الثالثة: وهي فئة معارضة تنكر علىٰ المتنبي أمر تنبئه ومنهم المعرّي[١].

ثانياً: موقف المحدثين:

الفئة الأولىٰ: وهذه الفئة قبلت ادّعاء النّبوّة ومن أعلام هذه الفئة سعيد الأفغاني[٢].

الفئة الثانية: وهي فئة متحفظة، ومن أعلام هذه الفئة العقاد[٣].

الفئة الثالثة: وهي فئة معارضة تنكر علىٰ أبي الطيب أنّه ادّعىٰ النبوة ومن أعلام هذه الفئة طه حسين[٤]، محمود شاكر[٥]، عبد الوهاب عزام[٦]، محمد عبد الرحمٰن شعيب[٧]، عبد الغني الملاح[٨]، هادي نهر[٩] وغيرهم.

ثالثاً: موقف المستشرقين:

إن المستشرقين أمثال بلاشير[١٠]، بروكلمان[١١] وماسينيون[١٢] ينكرون ادّعاء المتنبي للنّبوّة وينسبون إليه القرمطة.

أما الجناية التي سجن من أجلها شاعرنا فيخالف فيها شاعرنا رواة سيرته ويختلف الرواة فيما بينهم.

---

(١) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران ص٢٨١-٢٨٩.
(٢) سعيد الأفغاني: مجلة الرسالة.
(٣) العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص١٧٤-١٧٥.
(٤) طه حسين: مع المتنبي ص٩٩.
(٥) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٧٨-٩٢.
(٦) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٥-٦.
(٧) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٢٣-٢٤.
(٨) عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد أباه ص٨٠-٨١.
(٩) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص٢٨٨.
(١٠) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص١٢٢-١٢٥.
(١١) بروكلمان: تاريخ الحضارة الإسلامية ص٢٤٣-٢٤٤.
(١٢) ماسينيون: مجلة المورد العدد الثالث ١٩٧٧م.

obeikandl.com

في تاريخ الخطيب البغدادي[1] روايتان هما أصل لمعظم الروايات التي رويت في هذه القصة:

الرواية الأولى: إنّ أبا الطيب «لمّا خرج إلىٰ كلب وأقام فيهم ادّعىٰ أنه علوي حسني، ثم ادّعىٰ بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي، إلىٰ أنْ أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين، وحبس دهراً طويلاً، وأشرف علىٰ القتل ثم استتيب وأُشهد عليه بالتوبة وأطلق».

الرواية الثانية: «اخبرنا التنوخي، حدّثني أبي قال: حدثني أبو علي ابن أبي حامد، قال: سمعت خَلْقاً بحلب يحكون وأبو الطيب بها إذ ذاك، أنّه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية فقاتله وأسره، وشردَّ من كان اجتمع عليه من كَلْب وكلاب وغيرها من القبائل، وحبسه في السجن طويلاً، فاعتلّ وكاد أنْ يتلفَ حتى سُئل في أمره فاستتابه، وكتب عليه وثيقة، أشهدَ عليه فيها ببطلان ما ٱدّعاه، ورجوعه إلى الإسلام، وأنه تائب منه، ولا يعاود مثله وأطلقه».

أما ابن خَلِّكان فيقول[2]: «قيل له المتنبي لأنه ادّعى البنوة في بادية السماوة وتبعه خلق كثير مِن بني كلب وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأسره وحبسه طويلاً، ثم استتابه وأَطلقه، وقيل غير ذلك، وقيل: إنه قال: أنا أوّل من تنبّأ في الشعر».

وفي الصبح المنبي[3] وهو أجمع الكتب لأخبار المتنبي رواية عن رجل اسمه «أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل» قدم عليه المتنبي فأكرم وفادته، وأعجب بفصاحته وقال له: والله إنك لشابّ خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فأجابه المتنبي

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ص١٠٢-١٠٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص١٢٢.

(٣) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٥٢-٥٥.

مستنكراً، ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبيّ مرسل ثم تلا عليه جملة من قرآنه وهو مائة وأربع عشرة عبرة. ومن كلامه الذي كان يزعم أنه قرآن أنزل عليه: (والنّجم السّيار، والفلك الدّوار، والليل والنهار، أن الكافرين لفي أخطار) ثمّ إن المتنبي أرى اللاذقي معجزة فمنع المطر عن بقعة وقف فيها فأصاب المطر ما حولها، ولم تصبها قطرة فبايعه معاذ وعمّت بيعته كل مدينة في الشام، ثم أوصىٰ المتنبي معاذ بالسر وعدم إذاعة النبأ.

أما رواية الثعالبي[1] ويكاد يكون معاصراً أبا الطيب فإنه يقول: «وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أنه دعا قوماً من رائشي نبله علىٰ الحداثة من سنّه، والغضاضة من عوده، وحين كاد يتم أمر دعوته تأدى خبره إلىٰ والي البلده، ورُفع إليه ما هَمَّ به من الخروج فأمر بحبسه، وتقييده، وَيُحْكىٰ أنه تنبّأ في صباه وفتن شرذمةً لقوة أدبه وحسن كلامه».

أما المعرّي[2] وهو قريب من المعاصرين لأبي الطيب فقد سأله ابن القارح عن حقيقة ما ينسب إلىٰ المتنبي من ادعاء النبوة فقال في ردِّه الذي ألحقه برسالة الغفران: «حدثت أنه كان إذا سُئل عن حقيقة هذا اللّقب قال هو من النبوّة، أي المرتفع من الأرض».

تلك بعض الروايات التي ألصقت بأبي الطيب دعوىٰ النبوّة، وتلك الروايات تجعلنا نحار مع الحائرين وتدفعنا إلىٰ أن نسأل السؤال التالي:

هل تنبأ أبو الطيب أم لم يفعلها؟

إذا رجعنا إلىٰ الروايات السابقة نجد ما يلي:

إن رواية الخطيب البغدادي الأولىٰ نجد منها دعوىٰ النبوة مسبوقة وملحوقة بدعوى العلوية، وإنّ غموض الرواية يكشف الشيء الكثير، فادعّاء العلويّة المجرّد

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦١.

(٢) المعري: رسالة الغفران ص٢٨١-٢٨٩.

لا يسوّغ السجن إذ لم يصحبه دعوىٰ بسبب مهم، وحشر كلمة النّبوّة بين المطالبة بالعلوية مرتين يفضح التزوير في كلمة النّبوّة، فدعوىٰ النّبوّة مقحمة إقحاماً، فكأنما صحّ في ذهن جمهرة الرواة أنّه تنبّأ، فجعلوا في رواياتهم مصداق ما سمعوه وصح في أذهانِهم.

أما الرواية الثانية فهي رواية عن خلق يتحدثون، وهذه مقطوع ببطلانها مقضيّ بكذبها، لأن أحاديث الخلق دائماً مزوّقة الجوانب، موشاة الحواشي بالكذب القصصي الشيّق، وأمْر آخر فقد ٱقتصر أبو حامد في هذه الرواية علىٰ ذكر النبوة وحدها وما يأتيه التوهين إلاّ من قبل غرابته عمّا جرت عليه الأحكام في شأن من يدّعون النّبوّة.

يقول أبو علي: إنَّ لؤلؤاً أمير حمص استتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلىٰ الإسلام. أما أن يستتيبه ويشهد عليه أنّه تائب فهذا لا غبار عليه وهو الحكم مع كل من يدّعي النبوة، أما أن يكتب عليه وثيقة ببطلان نبوّته، فهذا أمر لا معنى له، لأن الوثيقة إنّما تُكْتب فيما يخاف من قبله معاودة الدعوى فتكون إقراراً مشهوداً عليه بالبطلان من المدعي نفسه. فتكون الوثيقة حُجّة عليه إذا عاد ليحاجّ النّاس فيما ادّعاه بعد الإقرار علىٰ نفسه بالكذب في الدعوى الأولىٰ.

أما النّبوّة فالأمر فيها على غير ذلك، فإنَّ الرّجل إذا ادّعى النبوة ثم رجع بعد ذلك فادّعاها يكون جزاؤه القتل من غير إنذار ولا استتابة، فالوثيقة لا تعدو أنْ تكون قد أخذت عليه في دعوى العلويّة لا دعوى النّبوّة.

أما رواية ابن خَلِّكان فقد بدأها بفعل مجهول وهذا دليل على أنه يشكُّ فيها ولا يصدق ذلك وروايـة الثعالبي التي ارتضاها وهي أنه أراد أن يخرج على السلطان فرواية التنبؤ ذيّل بها الكلام تذييلاً قائلاً (ويُحْكى) وهو فعل مجهول، وكانت رواية التنبؤ، فرية تحكى في الجملة ولم يكن الرواة أيدوها بالمعجزات والقرآ ن.

أما رواية معاذ فيقول شعيب[1]: «نحن لا نعرف شيئاً عن أبي عبد الله هذا، ولا نعرف مدى نزاهته في نقل الأخبار ورواية الأنباء. كما أننا لم نفهم سبباً لوصية المتنبي له بالأسرار وعدم إذاعة النبأ، إلا إذا كان المتنبي مرسلاً إليه وحده، أم أن الدعوى لم يحن بعد زمن الجهر بها؟ وكأنه هو وحده المؤتمن عليها وعلىٰ حاملها».

أما محمود شاكر[2] فقد فنّد رواية اللاذقي بحديث طويل أثبت به كذبه. حيث قال: «لقد ادّعىٰ معاذ أن دعوة المتنبي قد عمّت كل مدينة بالشام وبويع له بها كيف يكون هذا؟ والشام إذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم وكان أكثر أهلها لا يتخلفون عن صلاة، ولا يزال بين ظهرانيهم عالم يقرأ في مجلسه، أو واعظ يعظ في حلقته، أو خطيب يخطب من منبره ثم يؤمنون بدعوىٰ رجل لا تؤيده معجزة بيانية، ولا خارقة كونية، وإن زعمنا أن معاذاً قد آمن بالمتنبي لصدحة المطر، أفتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الضلالة، أو هذه الأكذوبة التي لا تعقل؟».

أما رواية المعري، فإن أبا العلاء يقف موقف الشاكّ المتردّد في قبول ما نسب إلىٰ أبي الطيب من دعوة النّبوّة، لذلك تراه يقول إنّ دعوىٰ المتنبي من النّبوة.

من هذا نرىٰ أن الذين نسبوا ادعاء النّبوّة للمتنبي أكثرهم من خصومه وحسّاده الحانقين عليه أو من ملفقي الأحاديث التي ينقض بعضُها بعضاً.

إنه لم يثبت من إرهاصات هذه النّبوّة التي وسم بها أبو الطّيّب شيء، غير أنه حبس في صباه.

وإذا عدنا إلىٰ موقف المحدثين فإننا نرىٰ أن العقّاد[3] لا يستبعد دعوىٰ النّبوّة علىٰ المتنبيّ لذلك فإنه يقول: «غير أني والحق يقال لا أستبعد دعوىٰ النّبوّة علىٰ

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٢٢-٢٤.

(٢) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٨٧-٩١.

(٣) العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص١٧٤-١٨١.

المتنبي ولا أجدها غريبة منه، ولو أنها ثبتت عليه، لما رأيت في ذلك ما يدعو إلىٰ دهشة أو غرابة ويحمل علىٰ حيطة أو زيادة تنقيب، والمتنبي في هذه القضية من المتهمين الذين يكفي لتسجيل التهمة عليهم أنْ يسمعَ القاضي شاهداً أو شاهدَيْنِ ثم يصرفُ بقية الشهود اكتفاء بما سمع واختصاراً للوقت، فالتهمة لاصقة لافقة، ولئن كانت باطلة لا أساس لها ولا نار لدخانها ليكونن الذي رماه بها من شياطين المفترين الذين يعرفون كيف يتخيّرون التُّهم لأربابهم، ويحوكون الأقاويل علىٰ قدر لابسيها وما كان هؤلاء قليلين في ذلك العصر المضطرب الخبيث الذي صار فيه نشر الدعوة فنّاً والتقوّل علىٰ الخصوم سلاحاً مذرباً، ولستُ أظن في المتنبي هذا الظن لأنه قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه.

أضف إلىٰ ذلك أن المتنبي لم يكن يصلّي ولا يصوم ولا يقرأ القرآن ولا يؤدّي زكاة بعد أن أثرى، ولم يكن متورّعاً وثيق الإيمان.

ثم يسأل العقاد نفسه فيقول: «هل حصل أن ادّعىٰ المتنبي النّبوّة؟ فيجيب قائلاً: «أما هذا فلا سبيل إلىٰ البتّ فيه برأي قاطع وأننا بين قولين: أنّ أرجحهما أنه فعل وادّعىٰ، والمرجوح منها أنّ الرجل نبز بهذا النبز، وإني أرجح القول الأول ترجيحاً قوياً، حتىٰ أكاد أرفض الاحتمال الثاني لأول نظرة»، ثم يقول: «فقد ثبت أن الرجل حبس فإن كان حبسه في فتنة أثارها فقد بقي علىٰ الذين يجزمون ببراءته من دعوىٰ النبوة أن يبينوا لنا كيف أطاعه بنو كلب وكيف استطاع أن يحركَهم إلىٰ الفتنة»، ويقول أيضاً: «لو كان المتنبي يستشعر قلبه للدّين رهبة ولمقام الأنبياء حُرمة لما جرىٰ علىٰ لسانه الغلو الشنيع الذي لا يسوغه دين ولا عقل»[1].

ويبدو لي أن العقاد قد نسي قول علي بن حمزة: «بلوت من المتنبي بثلاث خصال أنه ما زنا ولا سرق ولا لاط»، أما قوله لم يقرأ القرآن فهذا أعجب من العجب فالمتنبي حفظ القرآن أو أجزاء كبيرة منه، وقد ظهر أثر ذلك بشعره المسجل بديوانه، أما تشبيه المتنبي نفسه بالأنبياء كقوله:

---

(١) العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص١٧٤-١٨١.

مـــا مُقـــامـــي بـــأرض نخلـــةَ إلاّ كمُقـــام المسيـــح بيـــن اليهـــودِ
أنـــا فـــي أُمـــة تـــداركهـــا اللهُ غـــريـــبٌ كصـــالـــحٍ فـــي ثَمـــودِ[1]

فالشاعر لم يشبه نفسه بالسيد المسيح ولا بصالح عليهما أفضل السلام، وإنّما أحس الشاعر بصورة من صور الاغتراب التي أحسّها كل من عيسىٰ وصالح عليهما السلام وذلك لأنه كان يعيش في مجتمع أكثره من العبيد الذين لم يعُوا عصرهم المضطرب، ولم يدركوا جسامة الأخطار التي تنخر في أوصال أمّتهم، وربما يوحي بما لاقاه الشاعر من عنت وإجحاف من الذين عايشهم.

ومن الذين ينكرون ادعاء المتنبي للنبوّة طه حسين[2]، حيث يقول: «وأنا لا أتردّد في رفض ما يروىٰ من أنه ادعىٰ النبوة وأحدث المعجزات أو زعمَ إحداثها وضلّل فريقاً من خاصّتهم وعامّتهم فبايعوه واتّبعوه».

أما عبد الغني الملاح[3] فإنه يقول: «إن الذي ادّعىٰ النبوة هو أحمد بن عبد الرحيم الأصبهاني ويعود الفضل في إثبات ذلك إلىٰ الدكتورة بنت الشاطىء خلال تحقيقها رسالة الغفران للمعري وقد جاء في ذلك ما نصه «حكىٰ القطربلي وابن أبي الأزهر: كتاب اجتمع علىٰ تصنيفه أهل بغداد، وأهل مصر يزعمون أنه لم يصنف في معناه مثله لصغر حجمه وكبر علمه، يحكيان فيه أن المتنبي أخرج ببغداد من الحبس إلىٰ مجلس ابن الحسن علي بن عيسىٰ الوزير رحمه الله فقال له: أنت أحمد المتنبي؟».

فقال: أنا أحمد النبي، وكشف عن بطنه، وأراه سلعة فيه، وقال: هذا طابع نبوّتي، وعلامة رسالتي.

ولكن الدكتورة بنت الشاطىء وجدت في النسخة التيموريّة لرسالة الغفران وهي نسخة محفوظة بخط الناسخ وبمداد أحمر حاشية هذا نصها في جزء من

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الجيوان جـ١ ص٣١٩، ٣٢٤.
(٢) طه حسين: مع المتنبي ص٩٩.
(٣) عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد ابله ص٨٠-٨١.

تذكرة ابن العديم ما نصه «وهذا عجيب فإن المتنبي ولد سنة ٣٠٣هـ علىٰ ما رواه ابن سربال وغيره من الرواة، فكيف تصح هذه الحكاية قبل مولده فعلىٰ كل حال لا يصح ما نقله ابن أبي الأزهر وأبو محمد.. أو يكون هذا المتنبي غير أبي الطيب المتنبي والله أعلم» ثم ذيلت الحاشية بما نصه «صحّ بعد ذلك أنه غير أبي الطيب».

هذه النصوص تنفي نفياً قاطعاً الرواية التي قالت بنبوة المتنبي علىٰ الأقل في دار السلام ـ بغداد ـ وتجعل تلك الروايات في مصاف الخرافات التي استغلها خصوم الشاعر.

أما محمود شاكر[1] فإنه يقول: «إن المتنبي أظهر أمره بأنه علوي الأصل شريف النسب أثناء وجوده في بني عدي وبني كلب ففشا ذكره بينهم وبايعوه علىٰ العون له في الدعوة إلىٰ رد الحكومة إلىٰ العرب دون الأعاجم ولذلك سجن».

إن الروايات التي سجلناها تُجمع علىٰ أن الرجل قد دعا إلىٰ أمر وسجن فيه، بعد ذلك تختلف الروايات في أنها دعوىٰ النبوة أو غيرها. لذلك لا بد لنا أن نرجع إلىٰ ديوان الشاعر نفسه لنرىٰ ماذا قال في القصيدة التي كتبها وهو في السجن يستعطف الوالي لنبيّن كنه هذه التهمة من الشاعر نفسه، وبالرجوع إلىٰ ديوان أبي الطيب بشرح أبي البقاء العكبري المسمىٰ بالتبيان في شرح الديوان جـ١ ص ٣٤١ وجدنا ما يلي:

ووشىٰ به قوم إلىٰ السلطان فحبسه فكتب إليه من السجن:

أيـــا خـــدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخُـــدودِ ... وقَـــدّ قُـــدود الحِســـانِ القُـــدودِ
فَهُـــنَّ أسَلْـــنَ دَمـــا مُقْلَتِـــي ... وعَـــذَّبْـــنَ قَلْبـــي بطـــولِ الصُّـــدودِ
وكَـــمْ للهَـــوَىٰ مِـــن فَتـــىً مُـــدنَـــفٍ ... وكَـــمْ للنَّـــوَىٰ مِـــنْ قَتيـــلٍ شهيـــدِ
فَـــواحَسْـــرتـــا مـــا أمـــرَّ الفِـــراق ... وأعلـــقَ نيـــرانَـــهُ بـــالكُبُـــودِ
وأغـــرىٰ الصَّبـــابَـــةَ بـــالعـــاشِقيَـــن ... وأفتلَهـــــا للمحِـــــب العَميـــــدِ

(١) محمود شاكر: المتنبي ص١٠٢.

وألهَـــجَ نَفْســـي بغَيْـــرِ الخَنَـــا ... بِحُـــبِّ ذواتِ اللَّمَـــىٰ والنُّهُـــودِ
فكـــانَـــتْ وكُـــنَّ فِـــداءَ الأميـــر ... ولا زالَ مِـــن نِعْمـــةٍ فـــي مَـــزيـــدِ
لقـد حـال بـالسَّيْـفِ دونَ الـوعيـدِ ... وحـالـت عطـايـاهُ دونَ الـوُعـودِ
فـأنجُـمُ أَمـوالِـهِ فـي النُّحُـوسِ ... وأنجُـمُ سُـؤَالـه فـي السُّعـودِ
وَلَـوْ لَـمْ أَخَـفْ غَيْـرَ أعـدائِـهِ ... عَلَيْـه لَبَشَّـرْتُـهُ بـالخُلُـودِ
رَمـىٰ حَلَبـاً بنـواصـي الخُيُـول ... وسُمْـرٍ يُـرِقْـنَ دَمـا فـي الصَّعيـدِ
وبيـــضٍ مســـافِـــرَةٍ مـــا يُقِمْـ ... ـنَ لا في الرّقابِ ولا في الغُمُودِ
يَقُـــدْنَ الفنـــاء غـــداةَ اللّقـــاءِ ... إلـىٰ كُـلِّ جَيْـشٍ كَثيـرِ العَـديـدِ
فـولّـىٰ بـأشْيـاعِـهِ الخَـرْشَنِـيُّ ... كَشـاءٍ أحـسَّ بِـزَأْرِ الأُسُـودِ
يُـرَوْنَ مـن الـذُّعْـرِ صَـوْتَ الـرِّيـاحِ ... صَهيـلَ الجيـادِ وخَفْـقِ البُنُـودِ
فَمَـنْ كـالأميـرِ ابـنِ بِنْـتِ الأميـرِ ... أَوْ مَـنْ كـآبـائِـهِ والجُـدُودِ
سَعَـوا للمعـالـي وهُـم صِبْيَـةٌ ... وسـادُوا وجـادُوا وَهُـمْ في المُهُـودِ
أمـالـكَ رِقّـي ومَـنْ شَـأْنُـهُ ... هِبـاتُ اللُّجيـن وعِتْـقُ العبيـدِ
دَعـوتُـكَ عِنْـدَ انقطـاع الـرجـا ... ءِ والمـوْتُ منِّـي كحبـل الـوريـدِ
دعـوتـك لمّـا بـرانـي البلـىٰ ... وأوهـن رجلـيّ ثِقْـلُ الحـديـدِ
وقـد كـان مَشْيُهُمـا فـي النِّعـالِ ... وقـد صـار مشيُهُمـا فـي القُيُـود
وكُنْـتُ مـن النّـاس فـي مَحْفَـلٍ ... وهـا أنـا فـي محفِـلٍ مِـنْ قـرودِ
تعجّـل فـيَّ وجـوبُ الحـدودِ ... وحـدّىٰ قبـل وُجـوب السُّجـودِ
وقيـلَ عـدوت علـىٰ العـالميـن بيـن ... وِلادي وبيـــــن القُعـــــودِ
فمـا لَـكَ تَقْبـلُ زورَ الكـلامِ ... وقَـدْرُ الشّهـادةِ قَـدْرُ الشُّهـودِ
فـلا تَسْمَعَـنَّ مـن الكـاشِحيـنَ ... ولا تعبـأنَّ بِمَحْـكِ اليَهُـودِ
وكـن فـارقـاً بيـن دَعْـوىٰ أردْتُ ... ودَعْـوىٰ فَعَلْـتُ بِشَـأْو بعيـدِ
وفـي جـود كَفَيْـكَ مـا جُـدْتَ لـي ... بِنَفْسـي ولَـوْ كُنْـتُ أشْقـىٰ ثَمُـودِ[1]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤١-٣٤٧.

والقول الذي لا يتطرق إليه الشك أن المتنبي سيق إلىٰ السجن ولكن ليس بتهمة دعوىٰ النبوة، وإنما لأنه ذاع أمْره ببني عدي وبين كلب أنه علوي الأصل[1] شريف النسب، فالتفّوا حوله عن قناعة بصحة نسبه، وهذا ما لا يتفق ووجود الحكام والأمراء في مراكزهم وخاصة أنه كان قد مَلأ البلاد بشعره الثوري، ضد حكام بغداد الأعاجم وعن رأيه في الدولة العباسية التي ملك زمامها العجم والديلم والترك من خدم الخلفاء، وعن رأيه في الخليفة الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، ثم يعد في نظر أمته خليفة تعطي له المقادة، وتصرف إليه الطاعة بالإذعان والتسليم، وما ينجلي في كلماته من إرادة التغلّب والثورة علىٰ الدّولة عربها وعجمها، كل ذلك لا شكّ جلب علىٰ شاعرنا علىٰ الرغم من صغره واهتمام القائمين بأمر الدولة من الولاة والدعاة من العرب والعجم والترك والديلم، وشعره الثوري التخوّف منه ممّا جعل أعداءه يسعون إلىٰ الوالي من أجل سجنه.

ويروي محمود شاكر[2]: «أن الفاطميين والعلويين هم الذين سَعَوْا في إيقاعه في السجن وأن والي الشام نفسه ظنّ أن بني حمدان في حلب كانوا وراءه في مطالبته بحقه لأسباب سياسية، وخاصة أن المتنبي مدح سيف الدولة سنة ٣٢١هـ فأبقاه الأمير الإخشيدي في سجنه حتىٰ سنة ٣٢٣هـ، وقد أدرك المتنبي هذه التوقّعات، فكتب قصيدته السابقة الذكر وكانت السبب المباشر لإطلاق سراحه، بالإضافة إلىٰ احتمال توسط التنوخيين له».

إن القصيدة السالفة الذكر كتبها أبو الطيب إلىٰ محمد بن طفج الإخشيدي التركي في آخر سنة ٣٢٣هـ أو أوائل سنة ٣٢٣هـ، وقد ذكر في القصيدة (حلبا والخرشني) وسبب الذكر كما يقول محمود شاكر: «إنه في جمادىٰ الآخرة سنة ٣٢٢هـ سار الدمستُق «قرقاش» في خمسين ألفاً من الروم فنزل ملطيّة وحاصرها

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٤٥.

(٢) المرجع نفسه جـ١ ص١٠٦.

مدة طويلة، حتىٰ هلك أكثر أهلها بالجوع، ثم فتحها وهدم سورها وقصورها وضرب خيمتين علىٰ إحداهما صليب وقال[1]: «من أراد النصرانية انحاز إلىٰ خيمة الصليب لنرد عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام، انحاز إلىٰ الخيمة الأخرىٰ وله الأمان في نفسه، ونبلغه مأمنه، فانحاز أكثر المسلمين إلىٰ الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم، وسير مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم، وفتحها بالأمان، ثم ملكوا سُميساط، وخربوا الأعمال وأكثروا القتل، وقد فعلوا الأفاعيل الشنيعة، وصار أكثر البلاد في أيديهم، وكان إذ ذاك والي الشام محمد بن طفج، فردّه عن التوّغل، وانقلب الدُّمُستُق هارباً، ولم يدخلها، لذلك جعل شاكر تلك الحادثة تاريخ القصيدة آخر سنة ٣٢٢هـ.

ومن تحليل القصيدة نلاحظ ما يلي:

١ ـ يفتتح القصيدة افتتاحاً غزلياً عجيباً بالدعاء علىٰ الجميلات خدوداً وقدوداً، وتأكيد عفته.

٢ ـ يمدح الأمير بمدح تقليدي حين يصفه بالشجاعة والحزم وإتلاف المال، ثم يذكر إحدىٰ معاركه مع الخرشني ويمجد نصره.

٣ ـ إن الصور الشعرية التي في القصيدة ليست في المستوىٰ الذي عليه شعر المتنبي من ضخامة الجرس وجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وقوة الخيال وبلاغة العبارة، مما يدل علىٰ أن الرجل كان في حداثة سنه، وأن شعره لم تتكامل له القوة، أو تتوافر له المتانة أو تتوفر له الثروة البيانية التي أتاحها الله له فيما بعد، وربما كان من المؤكد أن المتنبي كان في هذا الوقت دون سن البلوغ بدليل قوله:

تَعَجَّلُ فيَّ وجوبُ الحدودِ وحدّىٰ قَبْلَ وُجُوبِ السجودِ

يقصد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحدّ، فالمتنبي يحاول في هذا البيت أن يدخل فيما يشبه الحوار الفقهي مع الوالي، ويشير فيه إلىٰ

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٢٢-٣٢٣، جـ ٨ ص٢٩٦.

الشروط التي يجب توفرها في إقامته الحدود والبلوغ من الشروط الأولىٰ لإقامة الحد، فإذا كان البلوغ بعيداً عن سنّ الشاعر فأي سند شرعي لإقامة الحد عليه وبهذا الادعاء يغمز معرفة الوالي وأهليته للقضاء، إن المفروض في من يتولىٰ هذا المنصب الخطير أن يكون مُلمّاً بالفقه الإسلامي إلماماً يتناسب مع السلطة القضائية التي خوّلت في جملة ما خوّل له، وإذا كان الوالي يجهل أبسط هذه الشروط لإقامة الحدود فأي حق له في الولاية والتصرف بأرواح الناس.

٤ ـ لم نر المتنبي يشكو وراء القضبان وذلّ القيود، وعناء الحبس، ومضاضة الحرمان وهذا يدل علىٰ استخفاف الشاعر بالسجن، في أول أمره، والدليل علىٰ ذلك ما رَوَوْا[١] من أن أبا دلف بن كنداح سجّان المتنبي أهدىٰ إليه هدية وهو معتقل بحمص فكتب إليه المتنبي يقول:

أهْـــوِن بطـــول الثَّـــواءِ والتَّلَـــفِ ... والسِّجْـــنِ والقَيْـــدِ يـــا أبـــا دُلَـــفِ
غَيْـــرَ اختيـــارٍ قبلـــتُ بِـــرَّكَ بـــي ... والجـوعُ يُـرضـي الأُسـودَ بـالجِيَـفِ
كُـنْ أيهـا السِّجـنُ كيـفَ شِئْـتَ فقـد ... وطَّنْـــتُ للمـــوتِ نَفْـــسَ مُعْتَـــرِفِ
لـــو كـــان سُكْنـــايَ فيـــكَ مَنْقَصَـــةٌ ... لـم يَكُـنْ الـدُّرُّ سـاكـنَ الصَّـدَفِ[٢]

ففي الأبيات السالفة ما يدل علىٰ كبريائه، وأن عذاب السجن وشقاءه لم ينالا منه شيئاً.

٥ ـ لو كان المتنبي مأخوذاً إلىٰ السجن بتهمة ادّعاء النبوة لركز جهوده في التّنُّصل مِنْ هذه التهمة ولباعد بينه وبينها بكل وسيلة مشروعة، ولا يوجد في القصيدة ما يشير إلىٰ أنّ التهمة ادّعاء النبوّة.

٦ ـ حين يذكر ما اتّهم به يقول: العدوان علىٰ العالمين، وهذه عبارة غامضة لا توحي بشيء من التنبّؤ بل توحي بالعصيان وإثارة الفتن والقلاقل.

وقيـــلَ عَـــدَوْتُ علـــىٰ العـــالميـــن ... بَـيْـــن وِلادي وبَـيْـــن القُعُـــودِ

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٠٤.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٨٠-٢٨١.

أي أنهم اتّهموه بالعدوان علىٰ العالمين في حالة الطفولة قبل أنْ يستطيع القعود ومن هنا علىٰ الإنسان أن يلاحظ نوع التهمة، فهي منحصرة في الخروج علىٰ السلطان ولو كانت ادّعاء النبوة لما قال عدوت علىٰ العالمين.

٧ ـ يقول أبو الطيب إنَّ الذين وَشَوْا به هم سَفَلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورّعهم عن الكذب يقول محمود شاكر[١]: «إنه يخاطب محمد بن طفج فيقول له: مالي أراك تقبل في أعدائك وأعداء مواليك العباسيين، وكان أولىٰ بك أن تزن أقوالهم بما تزنهم به (فقدر الشهادة قدر الشهود) فلا تسمح لهؤلاء الذين يضمرون العداوة (الكاشحين) ويقصد بذلك الفاطميين ويزعمون أن جدّهم كان يهودياً وأسلم ليدخل علىٰ الإسلام العقائد الفاسدة.

فما لَكَ تقبلُ زورَ الكلام وقَدْرُ الشهادة قَدْرُ الشّهودِ
فلا تسْمَعَنَّ من الكاشحينَ ولا تعْبأَنَّ بِمَحْكِ اليهود

٨ ـ يهيب الشاعر بالحاكم أن يفرق بين إرادة الفعل والفعل فربما يكون قد وَصلَهُ أنه رغب وأراد، ولكنه لم يصله عنه أنّه فعل، لذلك فهو بريء وأنَّ التنبؤ جريمة وكفر عند المسلمين، ولو لم يخرج مدّعيه بشكل عملي، وهذا يدل علىٰ أنَّ الوشاية به لم تتّهمه بادّعاء النبوة، بل التّهمة بأمور أخرىٰ، وبمطامع أخرىٰ لعلّها أي شيء آخر إلاّ التنبّؤ.

وما أقبح اعتذار المتنبي لو أن التهمة الموجّهة إليه كانت التنبّؤ، إذ يلصق بنفسه عار الرغبة في ادّعاء النبوّة، ولا ينقذه من هذا العار تأكيده بأنه لم يخرج رغبته المستهجنة هذه إلىٰ نطاق التحقيق العقلي.

وكُنْ فارِقاً بينَ دَعْوىٰ أردتُ ودعْوىٰ فعلتُ بشأوٍ بعيد

فإذا قلبت الدعويين، دعوىٰ أردت، ودعوىٰ فعلت علىٰ معنىٰ النبوّة لم يتم ذلك تساوق المعاني.

---

(١) محمود شاكر: المتنبي ص١٠٨.

٩ ـ في البيت الأخير حين يحتاج إلىٰ العفو مهما كانت جريمته لا يشبه نفسه علىٰ فرض إقدامه علىٰ ما اتهم به، بمدّعي النبوة المعروفين في التاريخ الإسلامي كمسيلمة بل يعتبر رمز الجريمة أحمر ثمود، وأحمر ثمود لم يدّعِ النّبوّة، بل أنكر نبوّة صالح وعقر الناقة فتسبَّب في إهلاك قومه بعد أن غرّر بهم وهذا يدل علىٰ أن التهمة كانت الخروج علىٰ السلطان.

وفي جود كفيك ما جدت لي بنفسي ولو كنت أشقىٰ ثمود

إن القصيدة التي حللناها قالها في صباه، قبل أن يناصبه العداء أحد من المنافسين له والحانقين عليه، والشعر الذي ذكر لم يتضمن شيئاً من الإشارة إلىٰ دعوىٰ النبوّة ولا يمكن أن تفهم منه بحال، فلو كان قال هذه القصيدة في أيام شهرته، وانتشار ذكره لقلنا أنه جمجم[1] فيها ودارىٰ نفسه، ولكنه قالها في صباه، وهي من أوائل شعره بلا نزاع في الاعتماد عليها وصحة الاستشهاد بها.

يقول عبد الله كنون[2]: «بل نحن نسلم جدلاً أنه ادّعىٰ النبوة وبسببها سجن فكيف يصحّ قوله حينئذ:

وكُنْ فارقاً بينَ دعوىٰ أردتُ ودعوىٰ فعلتُ بشأوٍ بعيد

وهل من يريد ادّعاء النبوّة متنبّىء بالفعل؟ وهل هذه الإرادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتىٰ تنأىٰ الوشاية به؟ وذلك بخلاف الخروج فإن بوادره تظهر للناس قبيل الإقدام عليه، لأنه لا بد له من دعاوىٰ كبيرة، إذ أن الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة في وجه الدولة.

ومع تأكيدنا أن الذين وَشَوْا به لم يتّهموه إلاّ بالخروج علىٰ السلطان لا نستبعد أنهم هم الذين لمزوه بذلك اللقب المشنوء لمّا رأَوْا تعاليه عليهم، والأهم من هذا كله أن يكون التأكيد علىٰ وجود دعويين، واحدة ادّعاها وهي المطالبة بالنسب والثانية لُفّقت ضده، فأخذ بها إلىٰ السجن وهي الثورة ضد السلطان.

---

(١) جمجم: إذا لم يبين كلامه مادة جمجم مختار الصحاح ص٧٢.

(٢) عبد الله كنون: مجلة الرسالة عدد ١٢٧/ ٣٠ رقم ٢٠٥٠-٢٠٥٢، ٢٠٩٣-٢٠٩٥ سنة ١٩٣٥.

وأثناء وجود الشاعر في السجن اعتلّ، وكاد يتلف حتىٰ سئل في أمره فاستتابه الوالي وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه أهل الشام ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلىٰ الإسلام، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله وأطلقه.

وهنا لا بد لي أن أسأل السؤال التالي:

لماذا سمي شاعرنا بالمتنبي إن كان لم يتنبأ؟

١ ـ حكى أبو الفتح عثمان بن جني[١] قال: سمعت أبا الطيب يقول لُقِبْتُ المتنبي لقولي[٢]:

أنا تِرْبُ النَّدىٰ، وربُّ القوافي ... وسِمامُ العدا، وغَيْظُ الحسودِ
أنا في أمةٍ تداركَها اللهُ ... غريبٌ كصالحٍ في ثَمودِ[٣]

٢ ـ روىٰ ياقوت رواية عن الناشىء الشاعر تدل علىٰ أنه لم يلقب بالمتنبي وقت سجنه ولا في السنة التي سجن فيها قال: «وحدّث الخالع قال حدّثني أبو الحسين الناشىء قال: كنت في الكوفة سنة ٣٢٥هـ، وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها، والناس يكتبونه عني وكان المتنبي، إذ ذاك يحضر معهم وهو بَعْدُ لم يُعرف بالمتنبي[٤].

---

(١) ابن جني: هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي كان من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف، أخذ عن أبي علي الفارسي وصحبه أربعين سنة وهو صاحب التصانيف القائمة المتداولة في النحو واللغة كان عبداً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي.
نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٣٣٢.
البداية والنهاية جـ١١ ص٣٣١.
بغية الوعاة جـ٢ ص١٣٢.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦٣.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٢٣-٣٢٤.

(٤) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٣٦-١١٦.

٣ ـ سئل المتنبي نفسه علىٰ من تنبّأ؟ فقال علىٰ الشعراء، فقيل له إنّ لكلّ نبيّ معجزة فما معجزتك؟ فقال: معجزتي هذا البيت[١].

ومِنْ نكَدِ الدُّنيا علىٰ الحُرّ أنْ يَرىٰ عَـدُوّاً لـه مـا مـن صـداقَتِـه بُـدُّ[٢]

٤ ـ يقول أبو العلاء المعري في رسالة الغفران: «وحدثت أنه إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال: هو من النبوة أي المرتفع من الأرض، ومعنىٰ هذا أنّ أحمد أبا الطيب لقّب بهذا اللقب لترفّعه عن الناس كما تنبو الأرض المرتفعة»[٣].

٥ ـ يقول هادي نهر[٤]: «سمي بالمتنبيّ بسبب لقبه الغريب الذي لصق به علىٰ كره منه، وقد أرجعه نفسه إلىٰ النبوة أي المكان المرتفع، لأنه كان فطناً نابغاً، أما عدم خلوّ عصره ممن ادّعىٰ النّبوّة وشوّه الحقائق الدينية فلا يعني بالفرض أن يكون المتنبي بالذات مدّعياً لهذه النّبوّة».

٦ ـ رأىٰ الشعراء المعاصرون لأبي الطيب أنه لم يدّعِ النّبوّة، وإنما كان في نفسه كبرياء وعظمة فهذا أبو القاسم المظفر الطبسي يقول في رثائه[٥].

كـان مـن نفسـه الكبيـرة فـي جيـش وفـي كبـريـاه فـي سلطـان
مـا رأىٰ النـاس ثـانـي المتنبـي أي ثـان يـرىٰ لبكـر الـزمـانِ
هـو فـي شعـره نبـي ولكـن ظهـرت معجـزاتـه فـي المعـانـي

٧ ـ رأىٰ عبد الكريم النَهْشلي أن أبا الطيب إنما سمي متنبّئاً لفطنته، وقال غيره: «بل قال: أنا أول من تنبّأ بالشعر»[٦].

---

(١) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٦٥.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٧٥.
(٣) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران ص٢٨١-٢٨٩.
(٤) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ٢٨٦-٢٨٧.
(٥) بلاشير: أبو الطيب المتنبي حاشية رقم ١ ص١١٨.
(٦) ابن رشيق القيرواني: العمدة ص٧٥.
علي شلق: المتنبي ص١٠.

٨ ـ روىٰ الخطيب عن أبي علي بن حامد قال: «كان المتنبي إذا شوغب في مجلس سيف الدولة ونحن إذ ذاك في حلب نذكر له هذا القرآن وأمثاله مما كان يحكىٰ عنه فينكره ويجحده»[١].

٩ ـ قال له ابن خالويه النحوي يوماً في مجلس سيف الدولة: «لولا أن الآخر جاهل لما رضي أن يدعي المتنبي لأن «متنبي» معناه كاذب ومن رضي أن يدعى كاذِباً فهو جاهل، فقال له: أنا لست أرضىٰ أن أدعى بهذا وإنما يدعوني به من يريد الغضّ بي، ولست أقدِرُ علىٰ الامتناع»[٢].

١٠ـ تعاليه علىٰ الأقران وزعمه في نفسه أنَّ الله قد ميّزه عن المعاصرين له، وخصّه بشيءٍ من الفضل علىٰ سواه، واعتقاده أنّ شعره آياتٌ محكمات يرويها الدهر، ويحفظها التاريخ ويزدانُ بها جيد الزّمن، وتنتشي برحيقها الدنيا، وأثر هذا الترفع واضح في شعره حيث يقول:

ما نالَ أَهْلُ الجَاهِليّةِ كُلُّهُمْ ... شِعْرى ولا سَمِعَت بسحْرِيَ بابِلُ

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ نَاقِصٍ ... فَهِيَ الشّهادةُ لي بأنيَ كامِلُ[٣]

وقوله:

أنا ابنُ مَنْ بَعْضُهُ يفوقُ أبا الـ ... ـباحثِ والنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجلَه[٤]

وقوله:

أَذُمُّ إلىٰ هذا الزمانِ أُهَيْلَهُ ... فأعلمُهُم فَدْمٌ وأحزمُهُم وَغْدُ[٥]

وقوله:

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ ممّن ضَمّ مَجْلِسُنا ... بأنني خَيْرُ مَنْ تَسْعىٰ بهِ قَدَم[٦]

---

(١) الأنباري: نزهة الألباء ص٢٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص٢٩٧.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٢٥٩-٢٦٠.
(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٢٦٦.
(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٣٧٤.
(٦) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ص٣٤٢٠.

١١ـ روىٰ الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ إذ يقول متبعاً ابن جني في شرحه لبيت المتنبي:

مـا مقـامـي بـأرض نخلـة إلا كمقـام المسيـح بيـن اليهـود[١]

بهذا البيت لُقّب بالمتنبي لتشبيهه نفسه بعيسىٰ عليه السلام.

١٢ـ قال الربعي: «وقال لي المتنبي: كنت أحبّ البطالة وصحبة البادية، وكان يذم أهل الكوفة لأنهم يضيقون علىٰ أنفسهم في كل شيء حتىٰ في الأسماء فيتداعَوْن بالألقاب، ولما لقّبْتُ بالمتنبي، ثقل عليّ ذلك زماناً ثم ألفته[٢].

١٣ـ خصوم المتنبي الألدّاء الذين كانوا لا يغفلون عن مناوأته، ولا يسكتون عن محاربته ولا ينامون عن الكيد له، والعمل علىٰ تشويه محاسنه، وانتحال العيوب له، فقد عاش عمره كله يعاني منهم ويحتمل من شرورهم ويشكو أذاهم كابن كروس الأعور الالكن، وابن لِنكك.

فقد هجاه ابن لِنكك[٣] البصري حينما سمع بقدومه بغداد راجعاً من مصر وكان ابنُ لنكك حاسداً له، طاعناً عليه، هاجياً زاعماً أن أباه كان سقاء يسقي الماء بالكوفة فشمت به وقال:

قـولاً لأهـلِ زمـان لا خـلاقَ لهـم ضلوا عن الرشدِ من جهل بهم وعَمُوا
أعطيتـمُ المتنبـي فـوق مُنْيَتِـه فـزوجّـوه بـرغـم أمهـاتكـمُ
لكـن بغـداد جـاد الغيـث سـاكنهـا نعـالهـم فـي قفـا السّقّـاء تـزدحـمُ

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣١٩.

(٢) محمود شاكر: المتنبي ص٢٥٣-٢٥٤.

(٣) ابن لنكك: هو أبو الحسن الشاعر الأديب كان فرد البصرة وصدر أدبائها في زمانه ولكن المتنبي أخْملَ ذكره، لذلك كثر شعره في هجائه وفي شكوىٰ الزمان، ولد في البصرة وتوفي فيها في أواخر القرن الرابع الهجري.
البديعي: حاشية رقم ٨ ص١٤٤.
بغية الوعاة ص٤٤. يتيمة الدهر ص٦٠.

وقال أيضاً:

مستنبيكمُ ابن سقاءَ كوفا ... نيّ ويوحىٰ من الكنيف إليه
كان من فيه يسلحُ الشّعْر حتىٰ ... سلحتْ فقحة الزمان عليه

وقال أيضاً:

ما أوقَحَ المتنبي ... فيما حكىٰ وادّعاه
أبيح مالاً عظيماً ... لما أباحَ قفاه
يا سائلي عن غناه ... من ذاك كان غناه
إنْ كان ذاك نبياً ... فالجاثليق إله[1]

وهجا ابن الحجاج[2] أبا الطيب لمّا دخل بغداد وقال:

يا ديمة الصَّفح هبي ... علىٰ قفا المتنبي
ويا قفاه تقدم ... تعال واجلس بجنبي
ويا يدي فاصفعيه ... بالنّعل حتىٰ تربي
إنْ كان هذا نبياً ... فالقرد لا شكَّ ربي

ثم إنّ الصاحب بن عباد[3] كتب المجلدات في نقده والوزير

---

(١) الجثاليق: رئيس الأساقفة يكون تحت يد بطريق أنطاكية.
يوسف البديعي: الصبح المنبي ص١٤٥.

(٢) ابن الحجاج: هو الحسن بن أحمد بن محمد بن الحجاج المتوفي في بغداد سنة ٣٩١هـ وكان أكثر قوله في الفحش.

(٣) الصاحب بن عباد: هو الصاحب إسماعيل بن عباد كاتب المشرق ووزير آل بويه توفي سنة ٣٨٥هـ وزر لمؤيد الدولة وكان من العلم والفضيلة والبراعة والكرم والإحسان بالعلماء والفقراء إلىٰ جانب عظيم، أخذ عن ابن فارس وابن العميد.
المصادر: الأعلام: جـ١ ص٣١٢.
البداية والنهاية: جـ١١ ص٣١٤-٣١٧.
بغية الوعاة: جـ١ ص٤٤٩-٤٥١.

المهلبي[1] سخّر القاضي التنوخي[2] لحبك الروايات الكاذبة عليه.

إن المتنبي نفى عن نفسه التهمة ولا يرضىٰ عنها: «قال له بعض الأكابر في مدينة السلام: أخبرني مَنْ أثق به أنك قلت: أنا نبيّ، فقال: الذي قلته أنا أحْمَدُ النبي»[3].

ومن هنا ومن خلال هذا كلّه جاز لنا أن ننكر إنكاراً صريحاً تنبّؤ المتنبي صاحب ذلك العقل الجبار الذي لو صحّ تنبؤه لكان ذريعة إلىٰ اتهامه في سلامة الإدراك، وكما أنني أرفض مع الرافضين ما يروىٰ فيه أنه ادّعىٰ النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها، وأنني لا أتردد في رفض هذا السخف الذي يشير إلى أن المتنبي زعم بأن قرآناً نزل عليه، وأن بعض الناس حفظ هذا القرآن لسبب بسيط جداً هو أن شعر المتنبي أعلىٰ مستوىٰ من ذلك القرآن الذي زعموا أنه أُنزل عليه من رب العالمين، وهل يصح أن يكون كلام المخلوق أعلىٰ من مستوىٰ كلام الخالق؟[4].

هناك طائفة من الناس أنكرت أن المتنبي ادَّعىٰ النبوة، واتهمته بما هو أبشع ألا وهو القرمطة، ومن هذه الطائفة المستشرقون أمثال بلاشير، وماسينون وبروكلمان، وردد كلام المستشرقين طه حسين وغيره، لذلك كان لا بد لي أن أعرّج علىٰ هذا الأمر لنعرف صحة الدعوىٰ فنسأل هذا السؤال:

من هم القرامطة، وما عقيدتهم وتعاليمهم؟

وهل كان أبو الطيب قرمطياً؟

---

(١) الوزير المهلبي: هو أبو محمد الحسن بن محمد ولد في البصرة سنة ٢٩١هـ وكان أول أمره موظفاً صغيراً ثم ارتقىٰ حتىٰ صار وزيراً لمعز الدولة، توفي سنة ٣٥٢هـ.
المراجع: يتيمة الدهر: جـ٢ ص٢.
الكامل في التاريخ: لابن الأثير جـ ٨ ص١٩٦.

(٢) علي التنوخي: وهو علي بن محمد علي التنوخي، فقيه أديب شاعر ولد في أنطاكية سنة ٢٧٨هـ وتوفي سنة ٣٤٢هـ كان من المنادمين للوزير المهلبي.

(٣) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٦٨.

(٤) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٢٨.

القرامطة

اسم عرفت به إحدىٰ الفرق الباطنية التي شغلت السلطات العباسية قرابة قرن من الزمن وأشاعت القلق والاضطراب في الشرق العربي بما خلقته من أفكار تخريبية، والحركة القرمطية حركة باطنية توسّلت بشعار الولاء لآل البيت النّبويّ، من أجل الوصول إلىٰ هدف وهو الثأر من العرب المسلمين والتخلص من الإسلام والانحراف بالمسلمين عن عقيدتهم الصحيحة. . .[١].

وقيل إن القرامطة هم من الشيعة المتطرفة، لهم صلة نسب بالإسماعيليين والفاطميين[٢]. من هدفها تقويض دعائم الإسلام وإباحة محرماته وإنعاش العقائد الأجنبية القديمة[٣].

والقرامطة هي الاسم الذي أطلقه أهل السنة والجماعة علىٰ هذه الفرقة الباطنية، فالقرامطة ثورة أعدَّ لها ونظمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح وهو فارسي كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان، وأخذ في سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سريّة تعمل علىٰ تقويض دعائم الدولة العباسية[٤].

كان عبد الله بن ميمون القداح يستعين علىٰ جذب الناس بطرق تتناسب مع كل شخص يجتذبهم بالسحر والشعوذة، وأخرىٰ يجتذبهم بإظهار التقوىٰ والنسك، وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص. بدأ دعوته بالأهواز، ثم تركها وسافر إلىٰ البصرة ومعه رفيقه حسين الأهوازي.

---

(١) طه الولي: القرامطة ص٢٥-٢٦.

(٢) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ص٨٤.

(٣) سامي العياش: الإسماعيليون في المرحلة القرمطية ص٨١.

(٤) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي جـ٤ ص٣٣-٤٢.

أحسّ القداح بمطاردة والي البصرة له، فهرب مع رفيقه إلىٰ سلمية بقرب اللاذقية في الشام، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلىٰ العراق، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثّاً فيها تعاليم مانوية وفارسية وفلسفية يونانية، وبعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية، ودعا في قوة إلىٰ فكرة التأويل في الآيات القرآنية حتىٰ يمكن فهم معانيها الباطنية المستترة أو قل معانيها الخفية التي ترمز إليها من بعيد.

أرسل عبد الله بن ميمون القداح الحسين الأهوازي إلىٰ الكوفة ليدعو إلىٰ الجمعية فالتقىٰ في سواد الكوفة سنة ٢٧٧هـ برجل نبطي يحمل بعض الغلاّت علىٰ أثوار اسمه حمدان كان أهل قريته يلقّبونه لقباً قبطياً هو قرمط لاحمرار عينيه الدائم[١] وزعم بروكلمان أن معنىٰ هذا اللقب المعلّم السريّ[٢].

وجد الأهوازي في حمدان طلبته فدعاه إلىٰ مذهبه فاستجاب له في حماسة بالغة، وأحسّ الأهوازي بدنو أجله فعهد إلىٰ حمدان قرمط برئاسة الدعوة فجدّ فيها حتىٰ أصبحت له فرقة كبيرة، دعيت باسم القرامطة نسبة إليه[٣]، ولم يكن يقبل أحد في جماعتهم إلا بعد اختبارات ومراسيم خاصة.

بدأ نشاط القرامطة سنة ٢٧٧هـ بالقرب من الكوفة وبعد حوالي تسع سنوات أصبح للقرامطة دولة مستقلة علىٰ الضفة الغربية من الخليج العربي (البحرين) ومن الكوفة والبحرين نشر القرامطة الخراب في كل مكان، حيث كان شعار هذه الفرقة النهب والسلب والقتل وقد شكلت خطراً كبيراً علىٰ الدولة العباسية، في سنة ٣١٥هـ خرج أبو طاهر الجنابي القرمطي في ألف فارس وخمسة آلاف رجل متجهاً إلىٰ الكوفة، وعلم المقتدر، فجهز لحربه يوسف بن أبي الساج في عشرين ألفاً وتقاتلا علىٰ أبواب الكوفة موطن شاعرنا المتنبي ودارت الدائرة علىٰ جيش

---

(١) حمدان عبد المجيد الكبيسي: عصر الخليفة المقتدر ص٤٥٤.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٢٩.

(٣) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي جـ٤.

الخليفة المقتدر، فندب الخليفة مؤنِساً[1] لقتاله في أربعين ألفاً وانضمّ إليه أبو الهيجاء ابن حمدان وأخوته في أصحابهم وأعوانهم، ووقعت بينهم مناوشات.

في سنة ٣١٧هـ وافىٰ أبو طاهر الجنابي القرمطي الحجاج في يوم التروية وهم يهلّلون ويلبّون، وقتل الحُجّاج قتلاً ذريعاً في فجاج مكة، ودخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستار الكعبة، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف، طرح كثيراً منهم في بئر زمزم وعرّىٰ البيت الحرام من كسوته وخلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلىٰ هجر ونهب جميع التحف التي زين بها الخلفاء الكعبة، ويقال إنه كان يجلس علىٰ باب الكعبة والحجيج يُصْرعون حول المسجد وهو ينشد:

أنـــا الله وبـــاللهِ أنـــا يخلـــقُ الخلـــق وأفنيهـــم أنـــا

يقول الديلمي: «روي عن أبي سعيد الجنابي أنه قال: الإسلام ليس بشيء وكذلك اليهودية والنصرانية، إن صحَّ شيء فالمجوسية»[2].

كان أبو طاهر زنديقاً لا يصلّي ولا يصوم ولا يؤدّي فرائض الإسلام مع التظاهر بأنه مسلم.

والقرامطة يعبدون العقل فالعقل عندهم هو الله، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما بقية الناس فهم علىٰ رأي أبي الطاهر «حمير» وأنهم مشركون وتجب إبادتهم عن بكرة أبيهم»[3].

إن القرامطة وضعوا علىٰ الله شروطاً حتىٰ يعبدوه ويقيموا له الصلاة وقد قال أحد شعرائهم لزوجته التي لامته علىٰ ترك الصلاة[4] حيث قال:

تلـوم علـيّ تـركـي الصـلاة حليلتـي فقلت اغربي من ناظري أنت طالقُ

---

(١) مؤنس (٢٣١-٣٢١هـ) مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي، أحد الخدم الذين بلغوا رتبة الملوك وكان من خدم المعتضد العباسي، كان فارساً شجاعاً من الساسة الدهاة بقي ستين سنة أميراً، ندب لحرب العبيديين، النجوم الزاهرة جـ٣ ص٢٣٩، جـ٨ ص٢٩٢.

(٢) سامي العياش: الإسماعيليون ص١٠٨.

(٣) طه الولي: القرامطة ص٩١.

(٤) المرجع نفسه: القرامطة ص٩٢.

فـــوالله مـــا صلّيـــتُ لله مُفْلســـاً يصلـي لـه الشيـخ الجليـل وفـائـق
لمـاذا أصلـي، أيـن ربعـي ومنـزلـي وأيـــن خيـــولـــي، إننـــي لمنـــافـــق
أصلي: ولا فتر من الأرض يحتوي عليـــه يمينـــي؟ إننـــي لمنـــافـــق
بلـىٰ.. إنّ علـيّ الله وسـع لـم أزل أصلـي لـه مـا لاح فـي الجـو بـارق

يقول الطبري عن الديانة القرمطية في تاريخ الأمم والملوك: «إنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام وأنهم يرَوْن السيف علىٰ أمة محمد إلا من بايعهم علىٰ دينهم، والصلاة عندهم أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها، والآذان أن يقول: الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا إلٰه إلا الله مرتين أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحاً رسول الله، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح وهي من المنزل علىٰ أحمد بن محمد بن الحنفية، والقبلة إلىٰ بيت المقدس والحج إلىٰ بيت المقدس ويوم الجمعة ويوم الإثنين لا يعمل فيه شيئاً»[1].

كيف يمكن اعتبار القرامطة مسلمين أو علىٰ الأقلّ من المسلمين وكيف يصح لنا أعطاء الهُويّة الإسلامية لمثل هؤلاء القوم الذين ألّهوا العقل وجعلوا علىٰ الله شروطاً حتىٰ يعبدوه ويقيموا مناسكه ويطبقوا شريعته[2].

إن القرامطة يرَوْن في التكاليف الشرعية نوعاً من العقاب الدنيوي لمن لا يعرفون «الإمام» ولا يؤمنون به، قال النويري في نهاية الأرب إن الحسين الأهوازي أباح للقرامطة أتباعه الأموال، وأعفاهم من الصلاة والصوم[3].

ويقول ابن حزم الأندلسي عن القرامطة: «إنهم يجاهرون بترك الإسلام جملة وتفصيلاً»، يقول عبد الله غريب[4]: «تظاهر القرامطة في بداية دعوتهم بانتسابهم إلىٰ إسماعيل بن جعفر الصادق وتتّسم دعوتهم بالمرحلية».

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ١٣ ص٣٣٧-٣٤٠.
(٢) طه الولي: القرامطة ص١١٥.
(٣) المرجع نفسه: القرامطة ص١١٦.
(٤) عبد الله محمد غريب: وجاء دور المجوس ص٦٩-٧٢.

ففي المرحلة الأولىٰ ينادون بالتشيع لآل البيت، وفي المرحلة الثانية يقولون بالرجعية وأن علياً يعلم الغيب، وفي المرحلة الثالثة يشرحون للمدعو مثالب علي وأولاده وببطلان ما عليه أهل ملّة محمد ﷺ، ويوصون دعاتهم وإن وجدت فيلسوفاً منهم حمدتنا، لأننا نتفق وهم علىٰ أبطال النواميس والأنبياء وعلىٰ قدم العالم».

إن ظاهر مذهب القرامطة الرفض، وباطنه الكفر، ومن مصطلحاتهم أن الجنابة هي مبادرة المستجيب بإفشاء سر قدم إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، والزنا إلقاء نطفة العلم الباطن إلىٰ نفس من لم يسبق معه عقد العهد، والنسل تجديد العهد، فزعماء القرامطة كلهم من الفرس ويطلق عليهم (الباطنيون) أو (الحشاشون) أو الفدائيون.

ودعا القرامطة إلىٰ مؤاخاة الناس علىٰ اختلاف دياناتهم وأجناسهم وطبقاتهم فدعوة القرامطة صورة لدعوة مزدك.

أما المستشرقون أمثال ماسينيون بلاشير وبروكلمان فيعتبرون الحركة القرمطية حركة دينية إصلاحية، ولذلك نسب هؤلاء المستشرقون المتنبي إلىٰ القرامطة.

هل كان المتنبي قرمطياً:

يذهب ماسينيون إلىٰ أنّ القرمطة أثّرت في أسلوب المتنبي وصياغته، وإليها يرد كثيراً من المظاهر الفنية في شعره، إذ يحسّ أثرها في ترفعه، وما يشعر به الإنسان عنده من مرارة وهو يلاحظ أنّه كان من شعراء البلاط ولكن قرمطيته جعلته لا يتغزل في الغلمان، ولا يصف جمال الجسد الإنساني، كما ابتعد عن الزهد، كما أنّه يثور في شعره علىٰ الدهر ونواميس المادة ثورة قرمطية، ويستعمل بعض الألفاظ التي تجدها عند الإسماعيلية في إخوان الصفا مثل (قدس الله روحه) (الفلك الدوار) (الثقلان)[1].

(١) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر الحديث ص٣١٢.

فمـــالَـــكَ تختـــارُ القِسِـــيَّ وإنَّمـــا عن السِّعد يَرْمي دونَكَ الثَّقلانِ[1]

كذلك يوجد في الديوان كلمات مثل (المهدي) (القائم) (الخلف)، ويضرب ماسينيون مثلاً لذلك فيقول: إنّ المتنبي رأىٰ أنّ الشمس لا يصحّ أنْ توضع تحت مرتبة الهلال إذ يقول:

ومـا التـأنيـثُ لاسـم الشمـس عَيْـبٌ ولا التـــذكيـــرُ فخـــرٌ للهـــلال[2]

وأمّا شوقي ضيف[3] فإنه يردّ علىٰ ماسينيون قائلاً: «إذ إنّ هذه الصّلة التي عقدها ماسينيون بين المتنبي والقرامطة غير صحيحة في جملتها وتفاصيلها فالمتنبي لم يكن يوماً قرمطياً، ولا متأثراً بالقرامطة، ومن التكلف الواضح في حمل البيتين علىٰ ما أرادهما من معنىٰ».

أمّا زكي المحاسني[4] فإنه يقول: «لقد عزا ماسينيون ما عند المتنبي من صلابة الأسر وتوقّد الحماسة والميل إلىٰ الحرب إلىٰ نزعةٍ قرمطية، إنّ هذا المذهب ارتآه ماسينيون حين وَجَد القرامطة يدهمون الأمصار في عصر أبي الطيب، إنّ ميلَ أبي الطيب إلىٰ الحرب، نزعة عربية حرة، في عصر عانىٰ فيه العرب الانقسام والتناحر ومكايد الفرس والترك، فكان أبو الطيب صاحب رسالة حربية من أجل تحرير العرب من ربقة العجم، وتجديد حياتهم بردهم إلىٰ المثل العليا، واستئناف مسيرتهم الإسلامية الصحيحة».

أما بلاشير[5] فإنه يقول: «سكن المتنبي بادية السماوة، وكانت قد انتشرت تعاليم القرامطة في قبيلة كلب، ومن الجائز أن بعض دعاة القرامطة حاول تلقينها ولداً مهيئاً بحكم تشيعه لتقبل تعاليم القرمطية، حيث يقال إنّ تلقين مبادىء

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص١٨.

(٣) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٣١٣.

(٤) زكي المحاسني: المتنبي ص٦٢.

(٥) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٥٠-٥٩.

القرمطية يبدأ بالدعوة إلىٰ التشيع، وفي الحق أنّ هذه الفرضية لا تقوم إلاّ علىٰ القرائن، وإذا ما أعوزتنا الشواهد القاطعة، فإننا نجد في ديوانه صرخات تمرد، ودعوة إلىٰ العنف جديرة أن تصدر من غلام أُصيب بتأثرات قرمطية.

وفي هذه الفترة أتصل بأبي الفضل الكوفي وهو شخصية غامضة حيث إنَّ كنيته لا تتيح لنا التحقق من شخصيته، ووصف أحدهم أبا الفضل من الناحية الخلقية فقال: «إنّ أبا الطيب وقع في صغره إلىٰ واحد يكنىٰ أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضلّه ويفرض علينا المنطق أن نضع أبا الطيب في جملة مثيري الفتن السياسيين الدينيين.

انظر إلىٰ هذه الأبيات تجد أنَّ الشاعر من خلالها مفتون بجرأة زعماء القرامطة للمشاركة بثورتهم.

أرىٰ أُناساً ومحصولي علىٰ غَنَمٍ ... وذِكْرَ جودٍ ومحْصولي علىٰ الكَلِمِ
سيَصْحَبُ النَصْلُ مني مثلَ مضرَبِهِ ... ويَنْجلي خبري عن صِمّةِ الصَّمَمِ
لأتركَنَّ وجوهَ الخيْلِ ساهمةً ... والحربُ أقومُ من ساقٍ علىٰ قدَمِ
بكلِّ مُنْصلتٍ ما زالَ مُنْتَظري ... حتّىٰ أدَلْتُ له من دولةِ الخَدمِ
شَيْخٍ يرىٰ الصلواتِ الخمسَ نافلةً ... ويستحلُّ دمَ الحجّاجِ في الحرمِ[1]

أما عزام[2] فإنه يقول بخصوص هذه الأبيات: «لقد ظنّ بلاشير أنَّ هذه الأبيات إشارة إلىٰ ما فعله أبو طاهر الجنابي القرمطي في مكة سنة ٣١٧هـ، إذْ قتل الحُجاج في مكة في الحرم، وأخذ الحجر الأسود إلىٰ هجر، ولستُ أجد لبلاشير حجة، فإنْ صح أنّ في الأبيات إشارة إلىٰ هذه الوقعة، فقد يشير الشاعر إلىٰ وقعة بعد سنين من وقوعها، وليس بعيداً أن يكون أبو الطيب سمع بوقعة أبي طاهر ثم أشار إليها في أبيات نظمها، علىٰ أنّ الأبيات ليس فيها إشارة واضحة إلىٰ أبي طاهر القرمطي وأصحابه، وجائز أنه أراد وصف أنصاره بالقتل والجرأة، فالقرامطة لقيت

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٣٩-٤٢.

(٢) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٤٢.

منهم الكوفة وأهلها مصائب أخذ الشاعر نصيبه منها، فما أحسبه مال إليهم ولا سلك طريقهم، وأقل ما في الأمر أنه دعوىٰ يعوزها الدّليل».

إن الواضح من الأبيات السابقة التي أشار إليها بلاشير أن نفس المتنبي تكاد تذهب حسرات فالنّاس من حوله مسخرون للحكام كأنهم أغنام، أو أنعام لذلك يعلن أنه قد صمم علىٰ أن يشن علىٰ أعدائه حرباً شديدة لا هوادة فيها، يخوضها الفرسان علىٰ خيولهم وقد أشرعوا رماحهم، وتعاهدوا علىٰ الثبات بل علىٰ إفناء الأعداء. وأنه ماض ليستميت في الحرب والنزال حتىٰ يخلّص وينقذ الأمة من دولة الأعاجم بل دولة الخدم والعبيد الذين استذلوا ساداتهم من العرب، ويصف المتنبي أنصاره بأنهم شجعان لا يبالون بالموت في سبيل ما يريدون.

يقول شوقي ضيف[1] بخصوص البيت التالي:

شَيْخٍ يَرىٰ الصلواتِ الخمسَ نافِلَةً ويستحِلّ دَمَ الحُجَّاجِ في الحَرَمِ[2]

لقد ظن بلاشير ومن بعده طه حسين أن في هذا البيت ما يشير إلىٰ القرمطية وهذا بُعد في الفهم والتقدير.

إنَّ المتنبي في البيت السابق يرىٰ جُرأة أنصاره الذين يأملُ منهم نصرته في القضاء علىٰ حُكْمِ أعداء العرب من الرقيق التُركي الذي استشرىٰ فساد حكمهم.

أما حمدان عبد المجيد الكبيسي[3] فإنه يقول: «وأما الكوفة التي وُلِدَ فيها المتنبي فقد هاجَمها أبو طاهر واحتلها مدةً من الزمن ولم يُشِرْ أي مصدر بأنَّ المتنبي قد اتصل بهم وأخذ تعاليمهم بل بالعكس حاربهم مع المحاربين».

أما طه حسين[4] فإنه يقول: «إن المتنبي أصبح قرمطياً من أثر بقائه في البادية، إذ إنّ القرامطة منذ ظهورهم كانوا يجدون في بادية الشام حماسة للدعوة فهو ثائر،

---

(١) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ص٨٠.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٤٢.

(٣) حمدان عبد المجيد الكبسي: عصر الخليفة المقتدر ص٤٥٤.

(٤) طه حسين: مع المتنبي ط١٢ ص٤٢-٤٣.

وأصبح داعية من دعاتهم»، ويقول أيضاً: «إن رحلة المتنبي إلىٰ البادية قد نفعته بناحيتين: فقد ربا جسمه، ونما عقله، وفصح لسانه، وتعلم أصول القرامطة، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية».

ثم يقول طه حسين: «انظر قبل كل شيء إلىٰ هذه الأبيات التي استبقاها المتنبي في ديوانه، وهي عندي بقية من قصيدة لعلها كانت مطولة مفصلة فلما أراد جمع ديوانه حذف منها أكثرها، وهذه الأبيات كافية كل الكفاية لإثبات قرمطيته»، قال أبو الطيب:

إلىٰ أيّ حينٍ أنت في زِيِّ مُحْرِمٍ؟ وحَتىٰ متى في شِقْوةٍ إلىٰ كم؟
وإن لا تَمُتْ تحتَ السّيوفِ مُكَرّماً تَمُتْ وتُقاسِي الذلَّ غيرَ مُكرَّمِ
فثِبْ واثقاً بالله وِثْبةَ ماجِدٍ يرىٰ الموتَ في الهيجا جنى النَّحْلِ في الفمِ[1]

يقول طه حسين[2]: «وليس عندي من شك أن هذه الأبيات تصوّر ما عاد به الغلام من البادية، بعد أن عاش في بيئتها المقتنعة بالمذهب الجديد، وتُصوّر ما عاد به الغلام من البادية من هذه الرصانة اللفظية التي ترفع اللفظ من الابتذال».

أما مارون عبود[3] فيعلق علىٰ هذا بقوله: «إننا ننكر تعلمه أصول القرامطة فما خرج المتنبي إلىٰ البادية إلاّ ليتسنىٰ له القول في حفظه لكلام العرب»، ويقول: «قلّبْتُ الأبيات التي يستشهد بها طه حسين علىٰ قرمطية المتنبي ظهراً لبطن فما وجدت بها دليلاً علىٰ هذه القرمطة المزعومة».

وما أخال المتنبي قرمطياً إلا في مشيته فإن رضي طه حسين بهذا فقد اتفقنا أما محمود شاكر[4] فيعلق علىٰ قول طه حسين بخصوص الأبيات السابقة قائلاً: «قد رأىٰ طه حسين بأنَّ المتنبي تعلم مذاهب القرامطة النظرية والعملية معاً قيل

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٣٣-٣٤.
(٢) طه حسين: مع المتنبي ط١٢ ص٤٤.
(٣) مارون عبود: الرؤوس ص١٨٢.
(٤) محمود شاكر: المتنبي جـ٢ ص١٣٦.

إيراد الدليل والحجة، وقد تعمد أن يذكر «البادية» بغير تعريف إذ كان يجب عليه أن يعرّفَ ويعين البادية التي رحل إليها المتنبي لأنه إذا صحّ أن الرحلة إلىٰ بادية السماوة وهذا صحيح ولا شك، فمن التهجم أن يقول أنه تعلم أصول القرامطة هنا لأن بادية السماوة (الشام) لم تكن موطناً للقرامطة بل كانت من أعداء القرامطة، وكثرت عليها غاراتهم، واشتدت فيها حروبهم، أما موطن الدعوة القرمطية فكان في جنوب الكوفة «البحرين»، فشأن هذه البادية التي رحل إليها وكثرت عليها غارات القرامطة، وإن كان وجوده لا ينتج القول بأنه كان قرمطياً، وكذلك رحلته إلىٰ بادية الشام لا تأتي بشيء يعضد هذا القول».

إن الأبيات التي استشهد بها طه حسين تدل علىٰ أن المتنبي كان يحث نفسه ويستنهضها لتخلع عنها الهلع والخوف والتردد، وهذا الزِيّ الوادع زي المحرم بالحج إلىٰ بيت الله الحرام الذي لا يستحل سفك الدماء ولا إراقتها، وكأن الشاعر يري أهل بغداد جميعاً يلبسون هذا الزِّي إزاء حكامهم الأعاجم، الذين استذلوهم وأرهقوهم من أمرهم عسراً، وإنه ليدعوهم، ويدعو معهم نفسه إلىٰ خلع ذلك الزِيّ ويلبسوا مكانه دروع الحرب والقتال ليغمدوا سيوفهم في نحور ذوي السلطان.

عندما نقرأ الأبياتِ السابقة ويقرؤها غيرنا لا يرىٰ أحد فيها دليلاً علىٰ القرمطة ولنفرض أن القرامطة من دعاة الخروج علىٰ السلطان والملوك، فهل كل خارج علىٰ السلطان قرمطي بالضرورة؟ فمن عقيدة العلويين الخروج علىٰ السلطان العباسي، فهل العلويون قرامطة؟ هل كل من تكلم بهذه الروح الثائرة المتمردة قرمطي؟ هل تكون دعوة من نافح عن بلاده إذا حمل السلاح ودعا إلىٰ التحرير والكفاح فيه نزعة قرمطية لأنها تهدد بسفك الدّم؟

هل إذا قام في أيامنا هذه رجل مخلص وطّن نفسه للعمل علىٰ مكافحة ومقارعة الاستعمار من أجل تخليص البلاد من الاحتلال الأجنبي البغيض يكون قرمطياً؟ هل إذا قام رجل فأخذ بالشعر يبعث الحمية والنخوة ويستنهض الأمة من

أجل الثورة علىٰ الكافر المستعمر وأعوانه وأذنابه وأجرائه يعتبر قرمطياً؟ هل كل متغنٍّ بالفروسية متعطّش للدماء يكون قرمطياً؟

إذا كان القرامطة يفخرون بما كانوا يفعلون فإن غيرهم ممن لا يدينون دينهم يتغنون بما يتمنون أن يفعلوه بهم تشفياً منهم ووضعا للأمور في نصابها.

إن الثورة والتحريض علىٰ القتل لا تعني القرمطية حتماً بل قد يكون ثورة علىٰ القرمطية وتقززاً منها.

يقول محمد عبد الرحمٰن شعيب[1]: «إذا دققنا النظر في شعر المتنبي لا نجد فيه شيئاً من أصول دعوة القرامطة، فأين الشعر الذي يمجد أئمة الدعوة؟ أين التغني بدعاتها من أمثال: عبد الله بن ميمون القداح، حمدان قرمط، وأبي طاهر الجنابي؟ وإذا كان المتنبي ترك ذلك تقية وستراً فأين الشعر الذي يشتم فيه توجيه المسلمين إلىٰ نبذ معتقداتهم والاستخفاف بمقدساتهم التي نبذها القرامطة ومرغوها في التراب؟ أين الشعر الذي يروّج لمذهب القرامطة، ويحثّ علىٰ مبادئهم، ويتغنىٰ بآرائهم، ويردّ قول دعاتهم في الأمانة وتأليه الخلفاء وتوقع الخلاص علىٰ يد المهدي؟ كلّ ذلك لم نجده في ديوانه، وكل ما وجدناه دعوة إلىٰ سفك الدم مع أنها قد تكون دعوة إلىٰ سفك دم القرامطة أو دماء الجند والسلاطين الذين ما استطاعوا أن يردّوا القرامطة عن الكوفة ملهىٰ طفولة المتنبي، علىٰ أننا لم نجد من خصومه الأولين وما أكثرهم عدداً وأسلطهم لساناً، وأسرعهم إلىٰ الثلم والعيب مَنْ تعرض لهذه الناحية، ولقد كانت مجالاً فسيحاً لغمزه والقضاء عليه وكلنا يعرف مدىٰ تعصب المتنبي للعرب تعصباً أنساه نفسه بحضرة ابن العميد حين قال له: «مالي وللديلم»[2]، وبحضرة عضد الدولة حين قال عنه: «سيف الدولة يعطي طبعاً وعضد الدولة يعطي تطبعاً»[3].

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٣٤٦.

(٢) البغدادي: خزانة الأدب جـ٢ ص١٤٤.

(٣) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٢٨-٢٨٩.

ويقول شعيب[1]: «إن سنّ المتنبي إبّان ثورة القرامطة كانت تسع سنوات وهي سنّ لا تسمح لنا أن نخلع عليه صفة الدعاة لدعوة خطيرة تحتاج إلىٰ اللباقة وبراعة الحجة وقوة العارضة وإلىٰ مزيد من الكيد والمكر».

ويقول شعيب[2]: «وما كان للمتنبي أن يخضع بالولاء لإمام باطل وخليفة زائف هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة الواقعية فالرواة يحدثوننا أن الرجل ما كذب ولا زنا ولا لاط، وإنما كان يعزف عن اللهو والشرب».

وداع بدين قبيح أصوله هذه الشيوعية المدمرة يعزف عما تحله له شريعته من مظاهر السلوك أقل ما يوصف بأنه برىء منها منحرف عنها.

ورب قائل يقول إنه كان يرجو القضاء علىٰ الخلافة العباسية بجند يرون الصلاة نافلة ويستبيحون دم الحجاج بالحرم، والجواب علىٰ ذلك عِداء المتنبي للعباسيين واضح ومشهور ورغبته للإطاحة بهم أمنية عاشت معه وظلت علىٰ لسانه طوال حياته وذلك لأن الخلافة العباسية سيطر عليها العجم والترك والديلم، والخليفة لم يكن له حول ولا قوة، فالأعاجم متحكمون بالحكم والخليفة ألعوبة بأيديهم وهو القائل:

وإنمـــا النـــاسُ بـــالملـــوكِ ومَـــا تُفْلِـحُ عُـرْبٌ مُلُـوكُهـا عَجَـمُ[3]

فهو يدعو بالثورة علىٰ الحكام الأعاجم الحائرين الذين لا يرعون للعرب حرمة ولا عهداً ولا ذمة.

يقول طه حسين[4]: «إنّ المتنبي إنّما ترك الكوفة بسبب عقيدته القرمطية خِشية علىٰ نفسه أن يؤاخذ، وأنّه خرج إلىٰ الشام بسبب هذه العقيدة ليتصل بالدعاة هناك ويعمل علىٰ نشر الفكر».

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٣٤٧.

(٢) المرجع نفسه ص٣٤٧.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٥٩.

(٤) طه حسين: مع المتنبي ص٤٥.

وهذا الكلام يخالف الحقيقة حيث إنّ المتنبي كان صغير السن وليس من المعقول أن يوكل للأحداث مثل هذا النشاط.

ويقول طه حسين عن الأبيات التالية:

يـا أيُّهـا المَلِـكُ المُصَفـىٰ جَـوْهـراً ... مِن ذاتَ ذي الملكوتِ أسمىٰ مَنْ سما[1]
نـورٌ تظـاهـرَ فيـك لا هـوتيّـةً ... فتكـادُ تَعْلَـمُ عِلَـمَ مـا لَـنْ يُعْلَمـا
ويهُـمُّ فيـك إذا نَطَقْـتَ فصـاحـةً ... مـن كـلّ عُضْـوٍ منـك أنْ يتكلّمـا
أنـا مبصـرٌ وأظُـنُّ أنـي نـائِـمٌ ... مَـنْ كـان يحلُـمُ بـالإلٰـه فـأحْلُمـا
كَبُـرَ العِيـانُ علـيّ حتـىٰ إنَّـهُ ... صـار اليقيـنُ مِـنَ العيـانِ تـوهُّمـا

يقول طه حسين: «إنّ هذه الأبيات تمثل تأثر المتنبي بالمذهب النظري للقرامطة وغلاة الشيعة، وهذه الأبيات مدح المتنبي بها رجلاً يعرف بأبي الفضل أراد أن يستكشفه عن مذهبه، فنحنُ هنا بإزاء رأي صريح في الحلول وهذا صريح في انحراف المتنبي عن الجادة الدينية».

ولكن محمود شاكر[2] يرىٰ في الأبيات السابقة ما يلي: «إنّ المتنبي لم يُرِدْ أن يمتحنَ أبا الفضل وإنّما أراد أنْ يمدحه لا أكثر ولا أقل، والأبيات السابقة لم يقلها إلاّ تندراً وعبثاً بأبي الفضل ذلك الرجل الجاهل المدّعي الفلسفة المسمىٰ بأبي الفضل، إنّ المتنبي أثبت الأبيات السابقة في الديوان ليذكر فيها شخصية كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصىٰ الضحك وغاية الاستغراب، لذلك بنىٰ الأبيات السابقة علىٰ المبالغة في المدح، بما ينقل الكلام من معنىٰ المدح إلىٰ معنىٰ الهجاء والسخرية، فأعجم القصيدة التي فيها الأبيات السابقة وأتىٰ فيها كل ساقطة من الفلسفة وما إليها وأخل بعربيتها إخلالاً بيّناً، لم يقع مثله في ساقط شعر أبي الطيب، ولأنّ طه حسين بحاجة إليها في القول بأنَّ المتنبي كان قرمطياً نقلها من هذا المعنىٰ إلىٰ معنىٰ الجد ثم الإلحاد والزندقة.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٣٠-٣٢.

(٢) محمود شاكر: المتنبي جـ٢ ص١٤٦-١٤٧.

ثم يقول محمود شاكر[1]: «علىٰ أن الرواة ذكروا أبا الفضل هذا فقالوا: «إن المتنبي وقع في صغره إلىٰ واحد يكنىٰ أبا الفضل (بالكوفة) وليس بالبادية من المتفلسفة فهوسه وأضلّه كما ضلّ».

فهذا النص صريح في أن أبا الفضل كان بالكوفة لا بالبادية وأنه كان من المتفلسفة لا من القرامطة، ولو أنه كان من القرامطة لذكروا ذلك ولبالغوا فيه، لعظم عداوته لأبي الطيب، ثم إن المتفلسفة إنْ يكونوا ضلالاً فإنَّ الحرج في وصفهم بالكفر والإلحاد كثير».

وأما القرامطة فأهل العلم جميعاً يرمونهم بالكفر والزندقة والإلحاد في غير حرج، وعنوان القصيدة في ديوانه قال وهو في المكتب بينما يقول طه حسين قال بعد عودته من البادية.

ثم يعلق شاكر أيضاً فيقول: «إن بلاشير الحاقد الكافر يقول: إنه من المحتمل أن يكون المتنبي قد اتصل ببعض القرامطة ثم «يرجح» أن هذا الاتصال لم يترك أثراً في حياته وشعره، أما طه حسين فقد حوّل المحتمل يقيناً لا شكاً، وجعل هذا الاتصال الذي لم يترك أثراً في حياته وشعره عند بلاشير، كان له أكبر الأثر وأوضحه في حياة المتنبي».

أما عمر فروخ[2] فإنه يقول: «تذكر بعض الرواة أن أبا الطيب ووالده غادرا الكوفة لما انكشفت لهما صلة بالقرامطة، مع أن حالة القرامطة كانت في ذلك الحين شديدة الاضطراب.

إننا لا نستطيع أن نجزم بشيء لم يذكره التاريخ ولا أشار إليه أبو الطيب من قريب أو بعيد».

إنّ التزام المتنبي وانتظامه بين أعضاء الجماعة القرمطية مستبعد بل مستحيل للأسباب التالية:

---

(١) محمود شاكر: المتنبي ص١٤٧-١٥٠.

(٢) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ص٤٥١.

أولاً: إنّ أبا الطيب كان يكره سيادة العبيد والخدم وأن رفع هؤلاء كان من الشعارات التي استعانت بها القرمطية لاجتذاب البؤساء إليها.

ثانياً: أنّ المتنبي كان يحتقر النبط ويراهم شعباً ضعيفاً قليل الهمة والفروسية لا يرتفعون إلىٰ ركوب الخيل ويستسهلون ركوب الجحاش ولا يصلحون لقيادة الثغور بالإضافة إلىٰ أنهم مغموزو النسب.

تُطاعِنُ كُلُّ خَيْلٍ سِرْتَ فيها ولَوْ كان النَّبيطُ علىٰ الجحاشِ[1]

وقال:

وماذا بمصْرٍ مِنَ المُضْحِكاتِ ولكنَّه ضَحِكٌ كالبُكا
بها نَبطِيٌّ مِنْ أهلِ السَّوادْ يدَرِّسُ أنسابَ أهلِ العُلا[2]

والقرمطية نمت بين النبط واعتمدت في أول أمرها عليهم.

ثالثاً: علىٰ أثر البيت الذي وصف فيه سيف الدولة بالقائم الملك الهادي جاء بيت آخر أحيىٰ فيه ذكرىٰ والده الذي عفّر القرامطة:

القائمُ الملكُ الهادي الذي شَهِدَتْ قِيامَهُ وهُداهُ العَرَبُ والعَجَمُ
ابنُ المُعَفِّرِ في نَجْدٍ فوارِسها بِسَيْفِهِ وَلَهُ كوفانُ والحَرَمُ[3]

رابعاً: أنه لم يمدح قرمطياً واحداً، ولم تؤثر عنه علاقة أو اتصال بهم أو حارب إلىٰ جانبهم، أو حضّ علىٰ الانتساب إلىٰ مذهبهم، بل علىٰ العكس حاربهم حينما اعتدَوْا علىٰ الكوفة.

خامساً: فردية أبي الطيب التي تأبىٰ الطاعة والانضباط والخضوع لما يفرضه الالتزام من تقيد في الفكر والعمل، التي حالت بينه وبين الاستقرار في مكانه والاطمئنان لدىٰ قوم طوال حياته.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢١٣.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٤٣.
(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٦.

سادساً: إنه لم يشع في مرجع قديم ما يشير إلىٰ هذه التهمة.

سابعاً: ومما يؤكد ضمور تأثره بالقرمطية أنه ألحّ علىٰ تمجيد الأمير المجاهد سيف الدولة خلال رجولته لحمايته الحجيج بعد أن أحل سيفه لدم القرامطة.

تَبيتُ به الحواضِنُ آمناتٍ وتَسلم في مسالِكها الحجيجُ[1]

ثامناً: إن المتنبي عربي صحيح النسب يعتز بعروبته علىٰ حين كان للأعاجم دور كبير في توجيه القرامطة، وفي تحديد أهدافهم البعيدة ضد المجد العربي، حتىٰ لم يجد أبو طاهر الجنابي اسماً يسمىٰ به ابنه إلاّ «سابور» ملك الفرس، كناية عن العمل علىٰ إعادة سلطانهم الغابر، وأين؟ في البلاد العربية ذاتها.

ومن الناس من اتهم المتنبي بالقرمطية نتيجة الخلاف الناشىء بينه وبين أبي فراس الحمداني، والجواب علىٰ هذا الرأي ما يلي:

إن المتنبي عاش في ظل الدولة الحمدانية سنة ٣٣٧-٣٤٦ وكان المتنبي معجباً ببطله العظيم سيف الدولة الحمداني، والحمدانيون أعداء للقرامطة، وكان المفروض لو أن المتنبي قرمطي أن يختلف مع الأمير لا أن يصاحبه ويعجب به، ومن هنا لم يُصِبْ من جعل سبب الخلاف بين أبي فراس والمتنبي قرمطية المتنبي.

إن المتنبي كان يدعو إلىٰ أن يتولىٰ أمر الخلافة والولاية والإمارة كل من كان أهلاً لها، وهذا يخالف دعوة القرامطة في ضرورة جعل الولاية وراثية محصورة في الأئمة.

هجاء المتنبي للقرمطي «ضُبَّه» الذي يعتبر من أقذع ما كتبه الشاعر في شعر الهجاء وهذا خير ما يمثل استنكاره للقرامطة[2].

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٣٧.

(٢) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي وأثرها في شعره ص١٤٩.
هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص٢٨٩.

عدم ملازمة الشاعر للقرامطة سواء أكان في صغره أم في كبره مع العلم أنه حاربهم ومدح من حاربهم القائد «دلير بن لشكروز».

يقول بلاشير[1]: «ظل المتنبي في بغداد قرابة عام وأخيراً صرف النظر نهائياً في مطلع عام ٣٥٢هـ عن مشاريع العودة إلىٰ سوريا وشد الرحال إلىٰ الكوفة، وما كان يحط عصا الترحال حتىٰ هاجم القرامطة الكوفة، فيقوم المتنبي في الدفاع عن المدينة ويساعد علىٰ رد المهاجمين علىٰ أعقابهم».

فالمتنبي كان عربياً صحيح النسب، عربي النشأة، عربي الطباع، حارب الشعوبية التي ظهرت في عصره علىٰ أكمل وجه وحاول تخليص المجتمع من الأخلاق الذميمة التي انتشرت والتي جعلتهم يخضعون للأعاجم.

إن شعر المتنبي يمثل أحاسيس العرب ويترجم نفسياتهم، يعبر عن الرجولة وعن مضاء العزيمة وعن الشمم والإباء وعن النظرة الجديدة للحياة، إن شعره يترجم أحاسيس العرب وميولهم وتذمرهم مما يشاهدونه من تحكم أُغيْلمة الديلم والترك وأذنابهم وأعوانهم.

لقد كان هدف المتنبي تكوين دولة عربية علىٰ أُسس سليمة فإذا قلنا إنه لو نجح في تكوين هذه الدولة لكان ذلك من الخير للعرب والإسلام، لم يكن في قولنا شيء من المبالغة، لأن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد، فكان ينفخ في جسم الدولة المتهالك، ويهيب بالأمة إلىٰ حياة المجد والعظمة فما يكون بأسرع منها بالاستجابة والأمثال عليه صادعة بأمره صادرة عن قوله[2]:

لا افتِخـــارٌ إلا لِمَـــن لا يُضـــامُ ... مُـــدْرِكٍ أو محـــاربٍ لا يَنـــامُ
واحْتِمـــالُ الأذىٰ ورُؤْيـــةُ جـــانيـ ... ـــه غـــذاءٌ تَضْـــوَى بـــه الأجســـامُ

---

(١) بلاشير: مجلة المورد، العدد الثالث ص٤٧ عام ١٩٧٧م، حياة أبي الطيب وشعره.
(٢) عبد الله كنون: مجلة الرسالة عدد ١٣٠ ص٢٠٩٥.

ذلَّ مَـنْ يَغْبِـط الـذليـلِ بِعَيْـشٍ رَبَّ عَيْـشٍ أخـفُّ مِنْـهُ الحِمـامُ
مَـنْ يَهُـنْ يَسْهُـلِ الهـوانُ عليـه مـا لِجُـرحٍ بميِّـتٍ إيْـلامُ[1]

لذلك نستطيع أنْ نقررَ أنّ المتنبي لم يكن قرمطياً كذلك لم يكن من غلاة الشيعة وإنما كان من الشيعة الزيدية، والزيدية معتدلة ترىٰ أنّ أهل البيت أحق بالخلافة من سواهم من غير أنْ تذمَ أحداً مِنَ الصحابة أو تتبنىٰ التأويلات الباطنية، لذلك لا تناقض في هذه القصيدة مع فكرة التوحيد.

❊ ❊ ❊

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٩٢-٩٤.

obeikandl.com

اتصال المتنبي ببلاط سيف الدولة

لم يزل المتنبي بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال في بلاد الشام حتىٰ اتصل بأبي العشائر بأنطاكية، حيث كان والياً عليها من قبل سيف الدولة، وكان أبو العشائر الحمْداني شاعراً مبدِعاً ومحارباً باسلاً، شديد العداوة للروم والترك والديلم الذين توالت غاراتهم علىٰ الدولة العربية بالجيوش تارة، وبالدسائس والمكايد تارة أخرىٰ، وكان المتنبي قد عرف بني حمدان وخاصة سيف الدولة من قبل سنة ٣٢١هـ.

أجل دخل أبو الطيب أنطاكية سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، ليلقىٰ العربية في مجلس بني حمدان، أراد أن ينقل شعره من تكاليف المدح إلىٰ الانطلاق والاسترسال في مدح من هم مِنْ رأيه، ومن يجد فيهم مرضاة نفسه وآماله، ولئن كان قبل قد مدح القوم العلوج ليستخرج منهم بعض أموالهم التي غلبوا الأمة العربية عليها، فقد نزل المتنبي علىٰ أبي العشائر، فأكرمه فقال:

فَسِرْتُ إليكَ في طَلَبِ المَعالي ... وسارَ سِوايَ في طَلَبِ المَعاشِ[1]

ونال عنده حظوة ومكانة ممتازة، حيث عرف أبو العشائر منزلة الشاعر معرفة حقة.

ولكن بدأت وشاية الوشاة بأنطاكية تفعل أفاعيلها، وشعر الشاعر بذلك فدل أبا العشائر عليه بلطف حيث قال:

فيا بَحْرَ البُحورِ ولا أَوَرَّىٰ ... ويا مَلِكَ الملوكِ ولا أُحاشي
كأنَّكَ ناظِرٌ في كُلِّ قَلْبٍ ... فما يَخْفىٰ عَلَيْكَ مَحَلّ غاشِ
أأَصْبِرُ عَنْكَ لَمْ تَبْخَلْ بشَيءٍ ... ولم تَقْبلْ عليَّ كلامَ واشِ[2]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢١٦.

(٢) المصدر نفسه ص٢١١-٢١٢.

والظاهر أن أبا العشائر قد أصم أُذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحساد.

في سنة ٣٣٧هـ كان سيف الدولة قد آستولىٰ علىٰ أكثر الشام ووقف للروم يصد غاراتهم علىٰ أطراف بلاده وكان يوقع بهم إيقاعاً شديداً وغلبت مقدرته العسكرية علىٰ كل من كان في عصره من القواد.

لقد كان سيف الدولة من دهاة بني حمدان وأوسعهم حيلة، وأشدهم حباً للعرب ودينهم وأكثرهم سعياً في رد الحكومة والسلطان للعرب.

قدم سيف الدولة أنطاكية في جمادىالأولىٰ سنة ٣٣٧هـ فقدّم المتنبي إليه، وأثنىٰ عنده عليه وعرّفه منزلته من الشعر والأدب.

واشترط المتنبي علىٰ سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلاّ وهو قاعد، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه فنُسِبَ إليه الجنون، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط، وتطلع إلىٰ ما يرد منه[١]، فلما أنشدَهُ المتنبي قصيدته التي مطلعها:

وفاؤكُما كالرَّبْعِ أشْجاه طاسِمه بأنْ تُسْعدا والدَّمْع أشْفاه ساجِمه[٢]

حَسُن موقعه عنده، وحكم له بالفضل، وعدّ طلبه استحقاقاً، وأجازه ومالت نفسه إليه فسلمه إلىٰ الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة.

يقول عزام: «فأمّا اشتراط المتنبي ما اشترط، فجدير بنفسه الأدبية، فقد ألف الشاعر أن يتخّذ من الممدوحين أصدقاء لا سادة، وأشفق علىٰ نفسه أن تسام الهوان وأن تكلف ما يكلفه الآخرون في لقاء الملوك، ولم يكن صعباً علىٰ سيف الدولة أن يجيبه إلىٰ ما طلب، فالعربي بطبعه، أبعد النّاس عن أن يرضىٰ العبودية لنفسه أو لغيره»[٣].

---

(١) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٧١.

(٢) الشجو: الحزن والهم مادة شجوىٰ معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ٣ ص٢٤٩.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٢٥.

(٣) عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٨٣.

أما محمود شاكر فإنه يقول[1]: «نحن لا نُسَلِّم بكل ما ورد في هذا النصّ ولا نثق به، إذا كان مروياً عن غير ثقة مأمون معروف، وإنما هو مما يتداوله الأدباء علىٰ علاته دون نقد أو تجريح ويحسن بنا أن نحدثك عن نقده:

أولاً: إن هذا اللقاء الذي تم سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٧هـ) لم يكن أول لقاء بين المتنبي وسيف الدولة فلقد سبقه لقاء كان سنة ٣٢١هـ عندما غادر الشاعر الكوفة متوجهاً إلىٰ بلاد الشام وكان لقاؤهما برأس عين من أرض الموصل، وقد مدحه الشاعر بقصيدة هذا مطلعها.

ذِكْرُ الصِّبا ومَرابِعُ الآرامِ جَلَبَتْ حِمامي قَبْلَ وَقْتِ حِمامي
صَغَّرْتَ كُلَّ كبيرةٍ وكَبُرْتَ عَنْ لكأنَّهُ وعَدَدْتَ سِنَّ غُلامِ[2]

فسيف الدولة كان علىٰ معرفة سابقة بالمتنبي.

ثانياً: إنّ النص يقول: إن أبا العشائر قدّم المتنبي إلىٰ سيف الدولة وعرفه منزلته من الشعر والأدب، وهذا عجب من أمر سيف الدولة الأديب الشاعر السياسي المحنك المطلع علىٰ كل ما كان في البلاد العربية، المتتبع لكل حدث في السياسة والأدب، عجيب أنْ لا يكون قد وصل إليه طرف من شعر أبي الطيب، يعرف منه منزلته في الشعر والأدب، فيأتي أبو العشائر فيعرفه تلك المنزلة.

ثالثاً: إن النّص يقول: إنّ سيف الدولة قد دخل تحت شرط المتنبي حين أشترط عليه أنْ لا ينشده إلاّ وهو قاعد، وأنْ لا يكلف بتقبيل الأرض بين يديه ونحن لا نعرف لماذا يدخل سيف الدولة تحت هذه الشروط، ولا نعرف لماذا أشترط المتنبي هذه الشروط، إذا كان جاءه علىٰ غير معرفة سابقة بينهما.

رابعاً: إنّ في النص كلمة يراد بها الغضّ من أبي الطيب، وتحقيره إذْ زعم واضعها أنّ سيف الدولة سلم أبا الطيب إلىٰ الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة».

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٩٣-١٩٥.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٦-١٠.

إن أبا الطيب كان فارساً قبل ٱتصاله بسيف الدولة، لقد كان فارساً منذ صغره اسمعه يقول لمن قال له: «ما أحسن هذه الوفرة»:

لا تَحْسُنُ الوفرةُ حتىٰ تُرىٰ مَنْشورَةَ الضِّفْرِيْنِ يَوْمَ القِتالْ
علىٰ فتىً مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعِلُّها مِنْ كُلِّ وافي السّبالِ[1]

فلا جمال في رأيه لوفرة الغنىٰ ما لم ينشرها حاسر الرأس مخيفاً بها الأعداء خائضاً غمار الهيجاء، وقد تسلح برمح قصيرة، ويَسقيها الدمّ المرة بعد المرة من كل رجل مكتمل الرجولة.

إنّ المتنبي الفارس كان يراوده المجد عن نفسه فلا يراه إلاّ بالموت في ظلال السيوف وفي غمرة الهيجاء:

إلىٰ أيّ حينٍ أنْتَ في زِيِّ مُحْرِم وحتىٰ متىٰ في شِقْوَةٍ وإلىٰ كَم؟
وإنْ لا تَمُتْ تَحْتَ السُّيوف مُكَرَّماً تَمُتْ وتقاسي الذُّلّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ واثِقاً بالله وِثْبَةَ ماجِدٍ يرى الموتَ في الهيْجا جنىٰ النَّحل في الفم[2]

لقد كان أبو الطيب قَبْل ٱتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولا شَكّ، فقد اتصل بكثير من أصحاب السلطان وأصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة.

فالرواية لا تصلح أنْ تكونَ سِياقاً للقاء أبي الطيب بسيف الدولة، والسياق «نزل أبو الطيب ضيفاً علىٰ أبي العشائر، يمدحهُ ويخبره، ويبرز ما عنده من الهمّةِ وبقي أبو الطيب سنة في ظلّ أبي العشائر، الذي كان أديباً مُقْتدراً مولعاً بالأدب مُبَجِّلاً للأدباء عاطِفاً عليهم مُعيناً لهم وبقي عنده حتىٰ جمادى الأولىٰ سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة حيث قَدِمَ سيف الدولة علىٰ أبي العشائر في أنطاكية، فاستقبله أبو العشائر، وأبلغه ما كان من مَقْدم أبي الطيب عليه وإكرامه له، ووصف له ما حس عند المتنبي، من نفس أبيّة، وخُلُق رفيع، وما وجد فيه من الفتوة، وما

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٣٣-٣٤.

عليه أبو الطيب من الطبيعة الثائرة الجبارة وما انطوت عليه نفسه من حب للعرب وكره للأعاجم فتذكر سيف الدولة المتنبي الذي أنشده مديحه سنة ٣٢١هـ[١].

وذكر سيف الدولة تلك الشخصية، وقد كان أبو الطيب رجلاً ملءَ العين قوياً بديناً فتقدم إلىٰ أبي العشائر يستدعيه لساعته شاكراً له حسن وفائه الرجل وإكرامه له.

في ذلك المكان (أنطاكية) لاقىٰ العربي الثائر الفذ، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفذ، فعلقت النفس بالنفس، وحنّ الدم إلىٰ الدّم، وكان هذا اللقاء فاتحة مجد إلىٰ أبي الطيب وخلود ذكر سيف الدولة في شعره وبيانه.

في هذا اللقاء وجد المتنبي آماله في آمال سيف الدولة، وآراءه في آرائه وعواطفه في عواطفه.

لقد رأىٰ المتنبي في سيف الدولة كل الرجولة، لأنه نذر نفسه من أجل أمته لقد كان سيف الدولة بطلاً مؤمناً مجاهداً في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الكفر هي السفلىٰ، لقد كان بطل الشاعر يقاتل من أجل مبدأ آمن به.

لقد رأىٰ المتنبي في سيف الدولة ذلك الإنسان الذي تتمثل فيه رغبات الأمة في الخلاص من عدوه المستبد، ذلك البطل الذي أدرك واقع أمته، فوقف في طليعة صفوفها ساعياً إلىٰ خلاصها من ربقة الأعداء، وصولاً إلىٰ مرافيء التحرير والانعتاق.

لقد رأىٰ الشاعر (المتنبي) في سيف الدولة الرجل الذي يعتمد علىٰ السيف في إحقاق الحق، فالحق في رأيه لا يسترجع بالمفاوضات مع العدو، كما هو الحال في أيامنا هذه وإنما يسترجع بالقوة وبحد السيف. فالسيف هو الحَكمُ بين المسلم والكافر، وعلىٰ المسلم أن يقتنع بضرورة الحرب باعتبارها حرب تحرير لا

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٩٥.

يخوضها المسلم من أجل حاكم أو قائد، وإنما من أجل القضاء علىٰ أعداء الله الذين من هدفهم القضاء علىٰ كل شيء عند المسلمين، كذلك أُعجب شاعرنا ببطله، الذي هو رمز للبطل العربي المسلم الأبي المرسوم في خيال الشاعر، باعتباره حامي الثغور الإسلامية والشعائر الدينية ومؤمن طريق الحجيج.

بقي سيف الدولة بأنطاكية أشهُراً من سنته وأبو الطيب إلىٰ جواره وفي مجلسه، واستصفاه سيف الدولة، ورأىٰ سيف الدولة فيه أنه رجل داهية بصير محنك فقرّبَهُ علىٰ سائر بِطانته. وعَزَمَ سيف الدولة الرحيل عَنْ أنطاكية إلىٰ حلب مقر حكمه ولكن أبا الطيب لم يصحبه بسبب مرض زوجته التي كانت حاملاً، فجاءها المخاض فأعْضَلت وعَسُرت وِلادتها ثُم رَمَتْ ذا بطنها وماتت. فعزم عليه أنْ يلحقه بحلب، وانتقل أبو الطيب بعد موت امرأته بقليل من أنطاكية إلىٰ حلب عندها دخل قصر الأمير، وقال فيه أجمل شعره ألا وهو شِعْرُ الحَرْب الذي يَنْقُلُ القارِىء إلىٰ المعركةِ لِيشْهَدَ صَليلَ السّيف وقراعَ القَنا وصهيلَ الخَيْل، وصياحَ المحاربين ودماءَ القتلىٰ وتأوهاتِ الجرحىٰ وعاش عنده حتىٰ سنة ٣٤٦هـ.

وفي حلب عاش الشاعر ببلاط الأمير حيث شاهد حركة علمية أدبية لغوية نشطة لم تشهدها أية عاصمة عربية أخرىٰ في عصر الدويلات، فلقد كان الأمير الحمداني نفسه عالماً أديباً إلىٰ جانب كونه فارساً ومجاهداً كبيراً، ولعله كان المدافع الوحيد عن حوزة الإسلام يومذاك.

لقد رعىٰ الأدباء وحاول أن يحشد منهم في بلاطه أكبر وأضخم عدد ممكن ينافس به بغداد، فاجتمع في بلاطه من الشعراء فحولهم كأبي فراس والنامي وكشاجم والخالديين والوأواء، ومن النحويين وعلماء اللغة أفذاذهم كأبي علي الفارسي وابن خالويه، وأبي الطيب اللغوي، والأصفهاني ومن الفلاسفة الفارابي.

وجد المتنبي في بلاط سيف الدولة هذا الجو الرفيع، الذي كانت تتوق نفسه إليه، ووجد المناخ العربي الصحيح، والرجل الذي حلم به في صباه، الرجل القائد والقدوة.

وهكذا لزم المتنبي سيف الدولة تسع سنين كانت حافلة بالأحداث الحربية من جهة سيف الدولة، والأدبية من جهة المتنبي، والمؤامرات من جهة الحساد، وانقسم البلاط إلىٰ حزبين: حزب يؤيد المتنبي في شعره وشخصيته، وحزب يشجب تصرفاته ويكشف سرقاته، وحزب ثالث متستر وراء العفة والشرف. في هذا الجو عاش شاعرنا ورافق مجاهدنا في حروبه فقال فيه أفضل شعره وأجمله وأصدقه وأرقاه؛ ذلك أن المتنبي الثائر حين لاقىٰ سيف الدولة الفاتح وجّه كل ما في قلبه من القوة التي دفعته إلىٰ مدح نفسه وذكرها والإفصاح عن آرائها وآمالها إلىٰ مدح هذا الرجل سيف الدولة ووصفه ووصف حروبه وغزواته.

وأخيراً فارقه وهو لا يزال ثابتاً علىٰ محبته والإخلاص له.

* * *

obeikandl.com